

: رمضان.. بعث جديد لروح الأمة
د/يحي احمد زكريا الشامي

٢٠٢٦_١٤٤٧

مقدمة: رمضان.. بعث جديد لروح الأمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.. وبعد،،

يا أيها المسلمون المرابطون على ثغور الإيمان في زمن العواصف.. إن شهر رمضان لم يكن يوماً مجرد محطة عابرة في تقويم الأيام، بل هو "المفيض العذب" الذي تتدفق منه أنهار الإسلام الخالدة، تروي ظمأ البشرية التي تاهت في صحاري المادية وجفت عروقها من صلة السماء. إنه ليس شهراً للكف عن الطعام والشراب فحسب، بل هو "عيد ميلاد الإسلام" الكوني؛ فكل نبض حيٍّ في جسد هذه الأمة، وكل فكر حرٍّ، وكل نصرٍ مجيد، إنما ولد وخرج وبرز من رحم هذا الشهر المبارك.

في رمضان، انفتحت بوابة السماء ليتنزل القرآن الكريم في ليلة هي خير من ألف شهر، فكان ميلاد النبوة الخاتمة، وكان ميلاد الوعي الإنساني الجديد الذي تحطم تحت أقدامه استبداد القياصرة وجبروت الأكاسرة. إنه الشهر الذي جعل فيه الله "الصبر" ركناً، و"المواساة" خلقاً، و"عتق الرقاب" غاية. رمضان الذي يُزاد فيه في رزق المؤمن، فمن أدى فيه فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه، ومن تقرب فيه بخصلة من خصال الخير كان كمن أدى فريضة، ليكون الزمن فيه مكثفاً، والروح فيه محلقة، والصلة فيه بالله مباشرة بلا وسيط ولا حجاب.

يأتينا رمضان هذا العام (١٤٤٧ هـ / ٢٠٢٦ م)، وأمتنا تعيش حالاً لا يخفى على أحد؛ من شتات في الفكر، وهوان في القوة، واستكانة في الإرادة. إننا يا إخوة الإيمان، لا نريد أن نقضي رمضان كعادة موروثة، بل نريد أن "نرمي بأنفسنا في أحضانه" رمي الغريق الذي يبحث عن شاطئ النجاة، ورمي الظالم الذي وجد نبع الحياة.

لقد آن الأوان أن نسترد رمضان من أيدي العابثين ومن قيود الجمود، لنشرع بعون الله في عرضه بمفهوم جديد، مفهوم يحرر العقل والروح معاً، تحت عنوان: ((رمضان: ميقات التحرر من الأغلال وصناعة الإنسان الخليفة.))

إن هذا الكتاب هو دعوة للارتقاء، وسفر في رحاب النفس والكون، سنطوف فيه عبر ستة محاور كبرى، ترسم خارطة الطريق للإنسان المسلم الذي يريد أن يستعيد هويته كـ "خليفة في الأرض".

***أولاً: فلسفة الميقات:** حيث نتأمل سر الزمان والمكان وكيف يكون الصيام بوابة للتحرر من أسر المادة.

***ثانياً: محور الانتصار:** في معركة النفس، والشيطان، والعجز، وفي ميادين الحق.

***ثالثاً: العبادة الجامعة:** التي توحد بين صفاء الروح وانضباط النص، وتجمع شتات الأمة.

***رابعاً: تكامل العبادات:** بين صيام "الترك" وقيام "الفعل"، وبين زكاة النفس وزكاة المال.

***خامساً: محور ميلاد الإسلام:** حيث نعود إلى جذور الوحي في ليلة القدر والاعتكاف والقرآن.

***سادساً: صناعة الإنسان الخليفة:** وهي الغاية الكبرى في استرداد كرامة الإنسان وتكليفه الإلهي.

إننا لا نكتب هنا مجرد كلمات، بل نرسم معالم "ثورة إيمانية" تبدأ من الداخل، لتغير ما بالخارج.

إننا ونحن نخطو أولى خطواتنا في رحاب هذا المفهوم الجديد، ندرك يقيناً أن الأغلال التي تُكَبَّلُ الأمة اليوم ليست مجرد قيودٍ حديدية، بل هي أغلالٌ من وهم واستكانة، وقيودٌ من ماديةٍ طاغية حجبت العقل عن خالقه، فصار الإنسان عبداً لشهوته، أو أسيراً لظالمه، أو حائراً في تيهه. ومن هنا يبرز رمضان كـ "فعل تحرري" فريد؛ فالصائم الذي يقف بصلاصة أمام نداء غريزته، يقرر في الحقيقة أنه سيدٌ قراره، وأن إرادته لا تُباع ولا تُشتري، وأنه قد استحق وصف "التكريم الإلهي" الذي ضاع في زحام المادية الحديثة.

يا إخوة العقيدة.. إن "رمضان كما ينبغي أن تحياه الأمة" هو الذي يجمع شتات القلوب، فتذوب فيه الفوارق بين صفاء الروح ومجاهدة النفس التي نادى بها الصوفية في أسمى معانيها، وبين الانضباط المنهجي والتمسك بالوحي الذي قامت عليه مدرسة السلف الصالح. إنه اللقاء الذي لا تضاد فيه، بل هو النور يمتزج بالاتباع ليصنع شخصية المسلم المتوازن، الذي يقرأ القرآن في محاربه ليترجمه عدلاً ورحمةً وقوة في ميادين الحياة.

إن الصيام في حقيقته هو "العبادة السلبية" التي تُفرغ القلب من الأغيار، لكنها لا تكتمل إلا بـ "العبادات الإيجابية" التي تملأ هذا الفراغ بنور العمل. فصلاة التراويح هي حوارنا اليومي مع الوحي، وزكاة الفطر هي صمام أمان السلم المجتمعي، والعمرة هي الرحلة التي نغسل فيها أدران الأرض بزمزم اليقين. كل هذه الشعائر ليست طقوساً جامدة، بل هي أدوات نحت لصناعة "الإنسان الخليفة"؛ ذلك الإنسان الذي أخرجهُ الله للناس ليقودهم بالحق، لا ليقاد بالباطل.

إننا نريد في هذا الكتاب أن نعيد لرمضان هيئته "كميلاد للإسلام"، فليلة القدر ليست مجرد ليلة نترقبها، بل هي إعلانٌ سنوي عن صلاحية هذا العقل البشري لتلقي

أوامر السماء. والاعتكاف ليس انعزالاً عن الحياة، بل هو "معسكر استراتيجي" يجمع فيه المؤمن شتات نفسه ليخرج للحياة بوجهٍ غير الذي دخل به، وبروحٍ تأبى الانكسار أمام الطواغيت أو الانصياع لخرافات الإلحاد. إن الهدف الذي ننشده من خلال محاورنا الستة هو أن نصل إلى "لحظة الانتصار" الكبرى؛ الانتصار على التواكل الذي أقعدنا، والكسل الذي أضاعنا، والفرقة التي مزقتنا. إننا نتوجه بهذا الخطاب لكل مسلم يحترق قلبه شوقاً لعز الإسلام، ولكل عقلٍ يسعى للتحرر من قيود الجمود والتقليد، ليكون رمضان هذا العام هو نقطة الانطلاق نحو فجرٍ جديد، فجرٌ لا تغرب شمسُه ما دمنا نتمسك بحبل الله المتين. إنه نداء الله لكم في هذا الشهر: أن استجيبوا لما يحييكم.. ولن يحييكم شيء مثلاً يحييكم "رمضان" حين تفهمونه ميقاتاً للتحرر، وميداناً للسمو، ومنطلقاً للسيادة والاستخلاف.

فاللهم ارزقنا في شهرنا هذا صدق العزيمة، ونور البصيرة، واجعله لنا ولأمتنا شهر فتحٍ ومبين، وعنقٍ من أغلال الأرض ولهيب النار.. آمين.

المحور الأول: فلسفة الميقات (بوابة الزمن المبارك)

تمهيد المحور: (رؤية إجمالية)

في هذا المحور، نطلق من كسر القلب المادي التقليدي الذي ينظر لرمضان كفترة زمنية "مفروضة" من الحرمان، لنرتقي به إلى مستوى "الفلسفة الوجودية". إننا هنا نناقش فكرة "الميقات" ليس كموعِد على التقويم، بل كاستراتيجية إلهية لإعادة صياغة علاقة الإنسان بالزمن وبالخالق سبحانه وتعالى.

إن فلسفة الميقات تقوم على فكرة أن الإنسان في زحام الحياة يغرق في "الألف والعادة"، فتتحول حركته إلى آلية تخلو من الوعي، وهنا يأتي رمضان كصدمة إيجابية للزمن الرتيب. نحن نبحث في هذا التمهيد كيف يمثل هذا الشهر "تحريراً للإرادة" عبر توقيات محددة (إمساك وإفطار)، ليعلم المسلم أن وقته ليس ملكاً لشهواته ولا لنظمه الأرضية، بل هو وعاء لمهمة الاستخلاف. إننا نضع القواعد الفكرية التي تفسر لماذا اختار الله هذا الشهر تحديداً ليكون "ميقاتاً للتحرر"، وكيف يتحول "جوع الجسد" فيه إلى "يقظة للعقل"، مما يمهد الطريق لتحطيم أغلال الاستبداد والإلحاد التي تناولناها في مشروعاتك السابقة.

عناوين محتويات المحور الأول:

* مفهوم الميقات في التصور الإسلامي: (بين ثبات النص وحركة الزمن).

* رمضان وكسر الرتابة: كيف يُعيد الميقات صياغة "يوميات" الإنسان الخليفة؟

*فلسفة المنع والإباحة: التحرر من أسر العادة بقرار "الإمساك".
*الزمن المبارك والزمن المادي: الرد على النظرة المادية التي تنفي قدسية الزمان.
*لماذا رمضان؟ (الارتباط التاريخي والوجودي بنزول الوحي وبدء الرسالة).
*الميعات كمعمل للضبط النفسي: التدريب على القيادة والسيادة من خلال إدارة الوقت.

*((أولاً)) مفهوم الميعات في التصور الإسلامي: بين ثبات النص وحركة الزمن
إن المتأمل في بنية التشريع الإسلامي يدرك أن "الميعات" ليس مجرد قيد زمني عابر، بل هو إطارٌ كوني ينظم حركة الوجود البشري ويربطها بإيقاع المشيئة الإلهية. فالميعات في جوهره يمثل نقطة التقاء بين "النص الثابت" الذي لا يتغير بتغير الأزمان، وبين "الزمن المتحرك" الذي يتدفق في حياة الخلق. إنه الضابط الذي يحول الوقت من سيولة مادية لا معنى لها إلى "وعاء للعبادة" ومشروع للتحرر (١).

لقد جعل الخالق سبحانه للمواقيت حرمة تكسر جمود المادة؛ فالمواقيت الزمانية والمكانية في الإسلام هي محطات لتجديد العهد مع الاستخلاف. ففي الصلاة، هناك مواقيت تضبط إيقاع اليوم (٢)، وفي الحج، هناك مواقيت مكانية وزمانية ترسم حدود الرحلة نحو الحق (٣). أما في رمضان، فإن الميعات يتخذ بعداً أعمق؛ إذ يتحول الزمن إلى "مدرسة إرادية" يمارس فيها الإنسان سيادته على نفسه بالامتناع عما أحل الله له في غيره من الأزمان، امتثالاً لأمر صاحب الزمان والمكان (٤). إن ثبات النص في تحديد الميعات يمنح الأمة وحدة شعورية وكياناً متماسكاً لا تذيبه صراعات التاريخ، بينما تمنح حركة الزمن مرونة تجعل العبادة متجددة في كل عصر. فالميعات الإسلامي يرفض "الاستكانة" للزمن المادي الرتيب، ويدعو العقل المسلم إلى اليقظة؛ فاللحظة التي يمسك فيها الصائم واللحظة التي يفطر فيها هما درس في الدقة، والانضباط، والارتباط بالخالق الذي "قدر فهدى" (٥). وهكذا يخرج الميعات بالمسلم من دائرة التقليد والجمود إلى دائرة الوعي بمقاصد الخلق، حيث يصبح الزمن أداة للتحرر من الأغلال، وليس مجرد ثوانٍ تمر سدى. إن مفهوم الميعات هو الذي يصنع "الإنسان الخليفة" الذي يعرف قدر وقته، فينتصر به على خمول نفسه وقيود واقعه (٦).

^(١) في اللغة: الميعات: هو الوقت المحدد للفعل، مأخوذ من "الوقت"، وهو المقدار من الزمان، ويُطلق أيضاً على الموضع الذي جعل للعمل (انظر: لسان العرب، مادة "وقت").

(٢) المرجع من القرآن: قال تعالى: {إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا} [النساء: ١٠٣].

(٣) المرجع من القرآن: قال تعالى: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ} [البقرة: ١٩٧].

(٤) المرجع من القرآن: قال تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ

((ثانياً)) عالمية الصيام وخصوصية الميقات: وحدة المنهج وتعدد الشرائع إن المتأمل في تاريخ التكليف الإلهي يدرك أن فريضة الصيام ليست بدعاً من الأمر اختصت بها الأمة الخاتمة دون غيرها، بل هي "قانون إلهي" مطرد لازم مسيرة الإنسان منذ فجر الرسالات. إن إقرار القرآن الكريم بوقوع الصيام على الذين من قبلنا (١) هو تأكيد على أن "التحرر من الأغلال" عبر كسر شهوات الجسد كان دوماً ضرورة لبناء "الإنسان الخليفة" في كل أمة. ومع ذلك، فإن الميقات الرمضاني في الإسلام جاء بخصائص فريدة ميزت الأمة المسلمة عن غيرها، ليس من باب الترف، بل من باب إتمام التكريم وتشريف الزمان والمكان (٢).

لقد كان الصيام في الأمم السابقة موجوداً، لكنه كان يعتريه التغيير في المواقيت أو الصفة بفعل الجمود والتقليد وتحريف التابعين، بينما جاء رمضان في التصور الإسلامي ليكون ميقاتاً "منضبطاً" و"عالمياً"، يربط المسلم بالوحي الذي نزل في هذا الشهر تحديداً. إن خصوصية رمضان لأمتنا تكمن في اقترانه بميلاد القرآن (٣)، فصار الميقات الرمضاني احتفالية كونية بالهداية والتحرر. إن الفرق بين صيامنا وصيام أهل الكتاب يكمن في "فصل الخصائص"؛ ومنها أكلة السحر التي هي تمييز لمنهج التيسير في الإسلام مقابل رهبانية الأمم السابقة (٤).

وهكذا، يظهر أن الصيام في أصله "عبادة إنسانية عالمية" تهدف إلى تطهير العقل من أسر المادة، بينما يظل رمضان "ميزة إسلامية" تتجلى فيها عظمة الاستخلاف. إن الصيام الذي كُتب علينا كما كُتب على الذين من قبلنا هو الرباط الوثيق الذي يجمع بين صفاء الروح ومرجعية الوحي، مما يجعله المحضن الأكبر لتقوى القلوب التي هي سر التحرر من كل استبداد أو إلحاد (٥). إن التزام الأمة بهذا الميقات الزماني هو إعلان عن انتمائها لجسد التوحيد التاريخي، مع الاحتفاظ بتميزها الذي وهبه الله لها كأمة وسطاً، شاهدة على الناس، ومتحررة من أغلال النزوات والضلالات (٦).

فَلْيَصُومُوا [البقرة: ١٨٥].

(٥) المرجع من السنة: عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال صلى الله عليه وسلم: "إذا أقبل الليل من هاهنا، وأدبر النهار من هاهنا، وغربت الشمس، فقد أفطر الصائم" [رواه البخاري ومسلم].

[المرجع من القرآن: قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} [الأعلى: ٢-٣].

(١) المرجع من القرآن: قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ١٨٣]. (٢) (في اللغة: كُتِبَ: أي فرض وألزم، وأصله من الكتابة لأن الشيء إذا كُتِبَ ثبت واستقر (انظر: المفردات في غريب القرآن، للأصفهاني).

(٣) المرجع من القرآن: قال تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ} [البقرة: ١٨٥]؛ وهنا اقتران الميقات بالوحي.

(٤) المرجع من السنة: عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب، أكلة السحر" [رواه مسلم].

((ثالثاً)) رمضان وكسر الرتبة: كيف يُعيد الميقات صياغة يوميات الإنسان الخليفة؟ إنَّ أخطر ما يواجه العقل البشري هو السقوط في فخ "الرتابة"؛ تلك الحالة التي تتحول فيها الأيام إلى نسخ مكررة باهتة، يفقد الإنسان دهشته وقدرته على التغيير، ويصبح عبداً لآلية العادات التي تكرر الجمود والاستكانة. وهنا يتجلى رمضان كـ "ثورة زمنية" تكسر هذا القيد، وتعيد صياغة اليوميات وفق نظامٍ إلهي يحرر المسلم من أسر النمط المادي الرتيب [١]. إن الميقات الرمضاني يفرض على الصائم جدولاً زمنياً يغيّر مألوفه؛ فيستيقظ حين ينام الناس (في السحر)، ويمسك حين يشتهي الجسد، ويفطر حين يأذن الحق. هذا الانقلاب في المواعيد ليس هدفاً في ذاته، بل هو وسيلة لخلخلة الركود النفسي وبعث اليقظة في الروح [٢].

من خلال هذا الميقات، يتعلم "الإنسان الخليفة" أنَّه ليس ريشة في مهب ريح الظروف أو العادات، بل هو كائنٌ قادر على إعادة هندسة حياته بقرار إرادي واحد. إن كسر رتبة الطعام والشراب والنوم في رمضان هو تدريبٌ عملي على "التحرر من الأغلال"؛ فالعقل الذي يستطيع أن يغير برنامجهِ اليومي الصارم لمدة ثلاثين يوماً، هو عقلٌ مؤهل لتحطيم أغلال الاستبداد والتقليد التي تفرضها النظم المادية أو الفلسفات الجاحدة [٣]. إنَّ رمضان يحول الوقت من "زمن استهلاكي" يضيع في اللذات، إلى "زمن إنتاجي" يُبنى فيه الإنسان من الداخل، ليخرج للمجتمع بإرادة صلبة لا تكسرهما ضغوط الواقع [٤]. إنَّ الغاية من هذا التغيير الزمني هي إخراج المسلم من الغفلة إلى الشهود، ومن التبعية للعادة إلى السيادة على النفس، وهو جوهر التكريم الإلهي الذي يجعل الإنسان سيداً في كونه، متصلاً بخالقه، ومتحرراً من كل ما سواه [٥].

((رابعاً)) فلسفة المنع والإباحة: التحرر من أسر العادة بقرار "الإمساك" تتجلى عبقرية الصيام في كونه عبادة تقوم على "الكف" لا على "الفعل"، وهنا تكمن فلسفة المنع والإباحة التي تصقل معدن الإنسان. إنَّ المعتاد في النظم المادية هو السعي المحموم نحو "التملك" و"الاستهلاك"، لكن رمضان يأتي ليفرض منطقاً

(٥) المرجع من السنة: عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه: "كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به" (رواه البخاري ومسلم)؛ وهذا يوضح عالمية التكليف وخصوصية الجزاء.

(٦) المرجع من القرآن: قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ} [البقرة: ١٤٣].

[1] لسان العرب، مادة "رتب": رَتَبَ الشَّيْءُ يَرْتُبُ رُتُبًا: أَي ثَبَتَ فَلَمْ يَتَحَرَّكْ، ومنه الرتبة التي تعني الجمود على حال واحدة.

[2] سورة الرعد: آية ١١: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}؛ ورمضان هو شرارة التغيير النفسي بكسر العادة.

[3] سورة البقرة: آية ١٨٧: {ثُمَّ آمَنُوا الصَّيَّامَ إِلَى اللَّيْلِ}؛ تحديد الميقات هنا هو تدريب على الانضباط وكسر هوى النفس.

[4] صحيح البخاري، حديث رقم ١٩٠٤: "الصيام جُنةٌ"؛ والجُنة هي الوقاية، وهنا وقاية من الانزلاق في رتبة الغرائز.

[5] سورة الإسراء: آية ٧٠: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ}؛ وكمال التكريم في تحرير إرادة الإنسان من الخضوع لغير الله، وهو ما يحققه كسر رتبة العبادة في رمضان.

مغائراً؛ وهو أنَّ كمالك الإنساني لا يتحقق بما تستهلكه، بل بما تستطيع "الامتناع" عنه إرادياً [١]. إن قرار "الإمساك" هو في حقيقته إعلان استقلال العقل عن سلطة الجسد، وتحرير للإرادة من أسر العادات التي كبلت الروح وجعلتها رهينة للمادة. فمن استطاع أن يمتنع عن المباح (الطعام والشراب) بكلمة من الله، هو أقدر على الامتناع عن الحرام، وأقدر على رفض قيود الاستبداد الفكري والسياسي [٢]. إنَّ الفلسفة الكامنة وراء تقليب العبد بين المنع (في نهار رمضان) والإباحة (في ليله) هي تربية النفس على "المرونة الإيمانية"؛ فلا يطغى الإنسان بالإباحة، ولا ييأس بالمنع. هذا التردد المحسوب بين الترك والأخذ يكسر غلواء "تأليه العقل" أو "تأليه الهوى"، ويضع الإنسان في مقامه الصحيح كعبدٍ مأمور، يتلقى مراد الله بقلبٍ حاضر [٣]. إنَّ "الإمساك" ليس حرماناً، بل هو "وقفة تأمل" في موضع الجمال، حيث ينظر الصائم إلى نعم الله بمنظور جديد، فيرى أثر الواضع في كل موضع، ويدرك أنَّ القبح ليس في الأشياء، بل في النفوس التي استكانت للعادة وغفلت عن المنعم [٤]. هكذا يصنع الصيام "الإنسان الخليفة" الذي يملك زمام نفسه، فلا تستعبده غريزة، ولا يذله احتياج، بل يظل متحرراً بقراره، شامخاً بعبوديته لخالقه وحده [٥]٤

((خامساً)) الزمن المبارك والزمن المادي: الرد على النظرة المادية التي تنفي

قدسية الزمان

تقف النظرة المادية المعاصرة عند حدود "الكم" في قياس الزمان، فتراه مجرد تدفق آلي لثوانٍ ودقائق صماء، لا فضل فيها للحظة على أخرى إلا بما يُنتج فيها مادياً أو يُستهلك [١]. غير أنَّ التصور الإسلامي يكسر هذا الجمود الفلسفي، لي طرح مفهوم "الزمن المبارك" الذي يستمد قيمته من أمر الله وفضله، لا من خصائص المادة ذاتها. فرمضان ليس مجرد جزء من اثني عشر جزءاً من السنة، بل هو "موقات قدسي" اختاره الخالق ليكون وعاءً لأعظم تنزلات الوحي؛ مما يثبت أنَّ الزمان في حقيقته هو "خلقٌ مستقل" وجنّدٌ من جنود الله، يأتّم بأمره ويتبارك بمشيئته [٢].

[1] لسان العرب، مادة "مسك": الإمساك هو الكف والضبط، وأصل الشيء ما يُتَمَسَكُ به. ومنه سُمي العقل "مسكاً" لأنه يضبط صاحبه عن القبيح.

[2] سورة البقرة: آية ١٨٣: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ}؛ والفرض هنا غاية التقوى، والتقوى هي أعلى درجات الانضباط والتحرر من الهوى.

[3] سورة الجاثية: آية ٢٣: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ}؛ والصيام هو السلاح الفعال لتحطيم صنم الهوى بقرار الإمساك.

[4] مستلهم من النص الفلسفي: "لا تحقرن شيئاً وانظر إليه في موضعه، ترى جماله في أثر واضعه"، فالصائم يرى جمال النعمة عند الإفطار بعد طول إمساك.

[5] صحيح البخاري، حديث رقم ١٨٩٤: "يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي"؛ وهنا تظهر قمة السيادة البشرية في تقديم مراد الخالق على نداء الجسد.

إنَّ الرد على الماديين الذين يحجبون العقل عن الخالق يكمن في إدراك أنَّ القوانين الفيزيائية للزمن ليست صفات متأصلة في المادة، بل هي "أمرٌ مستمر" من القیوم سبحانه [٣]. وفي رمضان، تتجلى هذه الحقيقة حين نرى كيف تتحول الليلة الواحدة (ليلة القدر) لترجح بـ "ألف شهر" في ميزان القيم والبركة؛ وهو ما يحطم المقياس المادي الرياضي ويستبدله بمقياس "البركة الإلهية" [٤]. إنَّ الإيمان بقدسية الزمان هو تحرير للعقل من سجن "المعدودات" إلى رحاب "المكرّمات"، حيث يصبح الزمن في رمضان فرصة للارتقاء فوق قوانين الطبيعة المعتادة، ليحيا المسلم في زمنٍ موصول بالسماء، ينتصر فيه على فكرة "الجمود المادي" التي تحاول تجريد حياته من المعنى والغاية [٥]. وهكذا، يعيد رمضان صياغة وعينا بالكون؛ فالزمن ليس خصماً يطاردنا، بل هو "ميدان استخلاف" تزداد قيمته كلما اتصل بمصدر الجمال والكمال [٦].

((سادساً)) رمضان دورة تدريبية و"ضبط مصنع": صناعة الريادة الإنسانية
 إنَّ كل صاحب عملٍ يبتغي الارتقاء بمستوى العاملين لديه يضع لهم "دورة تدريبية" مكثفة، تشدّ مهاراتهم وتصحح مساراتهم؛ والله المثل الأعلى، فقد جعل رمضان للأمة معسكراً سنوياً لـ "ضبط المصنع" الإنساني، وإعادة الروح إلى فطرتها التي جُبلت عليها قبل أن تلوثها أغلال المادة [١]. إنَّ هذا الميقات يمثل برنامجاً تدريبياً متكاملاً، له أنشطة دقيقة ومستهدفات واضحة؛ فمن "الصيام" الذي يربي الإرادة، إلى "القيام والتراويح" التي تغذي الروح، وصولاً إلى "الذكر والقرآن" الذي يجلو العقل من صدأ الجمود والتقليد [٢]. إنه منهجٌ يتدرب فيه "الإنسان الخليفة" على أسمى الأخلاق؛ من صبرٍ وصدقٍ وتقوى، وعلى ضبط الانفعالات في أحلك الظروف، حتى إذا ما تعرض لاستفزازٍ أو جهالة، قال بلسان حاله ومقاله: "إني صائم"، ليعلن انتصاره على غريزة الغضب وسطوة النفس [٣].
 لقد وُضع هذا البرنامج التدريبي ليكون "الصيام فيه نصف الصبر"، والصبر هو مفتاح السيادة والقيادة [٤]. والغاية النهائية من هذه الدورة مكثفة هي نيل شهادة "التقوى" التي هي جواز السفر لعالم التحرر من الاستبداد والإلحاد [٥]. وكما أنَّ لكل دورة رسوماً لإتمامها، فقد جعل الله "زكاة الفطر" طُهرةً للصائم ورسوماً

[1] المعجم الفلسفي: المادية: هي المذهب الذي يرى أن المادة هي الحقيقة الوحيدة، وأن الزمان والمكان ليسا إلا أبعاداً فيزيائية مجردة من أي معنى روحي أو غائي.

[2] سورة البقرة: آية ١٨٥: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ}؛ والتشريف هنا للزمان بسبب الحدث العظيم (نزول الوحي) بقرار إلهي.

[3] سورة الأعلى: آية ٣: {وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى}؛ فالتقدير الزماني هو هداية إلهية وسيطرة دائمة لا انفكاك لها.

[4] سورة القدر: آية ٣: {لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ}؛ وهذا هو الرد القاطع على أن الزمن ليس كمّاً متساوياً، بل كيفٌ يتبارك بأمر الله.

[5] صحيح البخاري، حديث رقم ١٩٠١: "كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف، قال الله عز وجل: إلا الصوم"، وهذا يثبت خروج زمن الصائم عن المقاييس الحسابية المعتادة.

[6] "الزمن خلق مستقل والقوانين الفيزيائية هي أمر مستمر من الله"، وهو ما يجعل من رمضان ميقاتاً للتحرر من المادية.

رمزية تُجبر ما قد يعتري الأداء من نقص، وتُتمم صبغة التكافل الاجتماعي. وفي ختام هذا المعسكر، تأتي "فرحة النجاح" متمثلة في العيد؛ فالصائم لا يفرح بمجرد الطعام والشراب، بل يفرح بتمامه الدورة ونجاحه في اختبار الإرادة، محققاً وعد النبي بأن للصائم فرحتين، إحداهما عند فطره، وهي فرحة الانتصار والتحرر، والأخرى عند لقاء ربه بصحيفة بيضاء نُقِيت من أدران النفس في مدرسة رمضان [٦٦]

((سابعاً)) تحرير الإرادة من قيود المادية والارتقاء بالروح وتجاوز حدود الجسد.

[الصفحة الأولى: بين سُنّة الزهد وبدعة الترف]

إنّ المتأمل في حال الأمة اليوم وهي على أعتاب رمضان، يجد بوناً شاسعاً بين "رمضان النص" و"رمضان الواقع"؛ إذ تحول الشهر في زماننا من ميقاتٍ لتحرير الروح إلى موسمٍ لتكبيّلها بأغلال الاستهلاك الطاعي. لقد تسللت "البدعة" إلى صلب العبادة حتى جردتها من معناها؛ فما قيمة إمساكٍ عن الطعام نهراً يتبعه نهْمٌ واستشرافٌ لكل ألوان الترف ليلاً؟ إننا إذا وضعنا رمضاننا المعاصر في ميزان السنة، لوجدنا أننا لم نغير سوى "مواعيد الطعام"، بينما ضاع منا المعنى الأسمى وهو "الإحساس بالجوع والظمأ" [١]. إن الإنفاق على مائذات رمضان اليوم بات يفوق إنفاق العام كله، حتى أصبحت "التخمة" هي الداء الذي يصيب الصائمين في شهرٍ وُضع أصلاً لعلاج القلوب والأبدان، فأفقدنا الصيام مضامينه الروحية التي قامت على الزهد والرغبة عما في أيدي الناس [٢].

لقد كان رمضان الرسول ﷺ وصحابته الكرام تجسيداً لقمة الزهد والفرار من الدنيا نحو الخالق؛ فكان الزهد يظهر جلياً في مآكلهم ومشربهم، يكتفي أحدهم بشربة ماء، أو تمرات، أو مذقة لبن [٣]. لم يكن الصيام عندهم مجرد "شكل" بل كان غوصاً في أعماق التقوى، مبالغةً في تحقيق معنى العبودية لله وحده. ولشدة شغفهم بهذا المعنى

[1] لسان العرب، مادة "فطر": الفطرة هي الابتداء والاختراع، ورمضان هو عودة للإنسان إلى فطرته الأولى (ضبط المصنع) التي خلقه الله عليها قبل أن تستعبده العادات.

[2] سورة البقرة: آية ١٨٣: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}؛ والتقوى هنا هي "المخرج التعليمي" والهدف الأسمى من هذه الدورة التدريبية الإلهية.

[3] صحيح البخاري، حديث رقم ١٩٠٤: "فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني صائم"؛ وهذا هو قمة الانضباط السلوكي وتدريب النفس على الحلم.

[4] سنن ابن ماجه، حديث رقم ١٧٤٥: "الصيام نصف الصبر"؛ وهو تدريب على تحمل المشاق في سبيل الغايات الكبرى.

[5] سورة البقرة: آية ١٨٥: {وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَذَاكُمْ}؛ والتكبير هنا هو إعلان النجاح في الدورة التدريبية واستحقاق الفرحة.

[6] صحيح مسلم، حديث رقم ١١٥١: "للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه"؛ وهي جائزة التخرج من معسكر رمضان الإيماني.

التحرري، بلغت بهم المبالغة حد "الوصال" في الصوم، رغبةً في تجاوز حدود الجسد المادي، حتى نهاهم النبي ﷺ رفقاُ بحالهم وإبقاءً على قوتهم، معلناً خصوصية حاله مع ربه: "إني أبيتُ يطعمني ربي ويسقيني" [٤]. إن هذا الفهم العميق هو الذي جعل عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يطلب التزويد من الصيام حباً في مجاهدة النفس، حتى أرشده النبي ﷺ إلى صيام داود عليه السلام، مؤكداً أن للجسد حقاً، لكن السيادة فيه يجب أن تظل للروح لا للمعدة [٥]. إنَّ الجوع في مدرسة الصحابة كان عبادةً توازي قيام الليل، لأن البطن الخاوية هي التي تفتح مسالك الوعي، وتظهر القريحة، وتجعل العقل حراً من كل قيدٍ مادي يحول بينه وبين شهود عظمة الخالق [٧٦]

((سابعاً)) تحرير الإرادة من قيود المادية.. [الصفحة الثانية: فضل الجوع وسر المجاهدة]

إنَّ المتتبع لهدى النبوة يجد أنَّ "الجوع" في رمضان ليس مجرد عرضٍ جانبي للصيام، بل هو مقصودٌ لذاته كأعظم وسيلة لمجاهدة النفس؛ فالأجر في ميزان الحق يتبع المشقة، وأفضل الأعمال عند الله "أحمرها" أي أشدها على الهوى [١]. ومن هنا كان الجوع والظمأ في رمضان هما الوقود الذي يحرق الشهوات، ويؤهل الروح لدخول ملكوت السماء؛ إذ كيف يطمع في ارتقاء المعارج من أثقلته البطننة وحجبته التخمّة؟ إن النبي ﷺ قد وضع لنا قاعدة ذهبية حين قال: "لا يدخل ملكوت السماء من ملأ بطنه"، وأخبرنا أنَّ أبغض الناس إلى الله يوم القيامة كل "نؤوم أكل"، لأنَّ كثرة الطعام تُورث الغفلة وتميت نور الحكمة في القلب [٢].

لقد كان الأنبياء عليهم السلام هم القدوة في هذا المسار التحرري؛ فموسى عليه السلام جاهد نفسه بالجوع أربعين يوماً لمناجاة ربه، وعيسى عليه السلام ظل يناجي ربه ستين صباحاً لم يذق فيها طعاماً، حتى إذا خاطر باله "الخبز" بكى خوفاً من انقطاع حلاوة المناجاة [٣]. إنَّ هذا المنهج هو الذي جعل السلف يرون أنَّ "الجوع هو العبادة"، وأنَّ الفكر نصفها؛ فمن أجاع بطنه عظمت فكرته وفطن قلبه، ومن شبع ونام قسا قلبه وتثاقل عن ذكر الله [٤]. إنَّ الله تعالى يباهي ملائكته بعبدٍ قلَّ طعامه وشرابه في الدنيا، فيقول: "انظروا إلى عبيدي، ابتليته بالطعام والشراب

[1] لسان العرب، مادة "بدع": البدعة هي إحداث ما لم يكن له أصل، وتحويل رمضان إلى شهر استهلاك هو بدعة في الممارسة تضاد جوهر التشريع.

[2] سورة البقرة: آية ١٨٣: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}؛ والتقوى لغةً هي الوقاية، ولا وقاية مع التخمّة والإسراف.

[3] المذقة: هي الشربة من اللبن الممزوج بالماء. (انظر: المعجم الوسيط).

[4] صحيح البخاري، الحديث رقم ١٩٦١: "لست كهيتكم، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني"؛ وهو دليل على أن غذاء الروح يغني عن غذاء الجسد في مراتب القرب.

[5] صحيح البخاري، الحديث رقم ١٩٧٥: "فإن لجسدك عليك حقاً.. صم صيام نبي الله داود ولا تزدد عليه."

[6] مستلهم من النص: "الجوع هو العبادة"، لأن خفة الطعام تُورث صفاء القلب وإبقاء القريحة وإنفاذ البصيرة.

فتركهما لأجلي، أشهدكم أنني ما من أكلة يدعها إلا رفعت بها في الجنة درجات" [٥]. إن كسر كبرياء النفس بالجوع هو "سيد الأعمال"، وهو الطريق لتذليل النفس الأمارة بالسوء التي إذا شبت عصت، وإذا جاعت خشعت وقنعت [٦].^٨

خماسية الثمرات]

إن حقيقة الجوع في رمضان ليست عقوبةً بدنية، بل هي "بوابة كبرى" لفيوضات ربانية لا تُنال إلا بخفة البطن، ويمكن إجمال هذه الثمرات في خمسة أركان ترفع شأن الإنسان الخليفة: أولها صفاء القلب وإيقاء القريحة؛ فإن الشبع يورث البلادة ويُعمي البصيرة، بينما الصوم يُذكي نور الحكمة في النفس، كما قال النبي ﷺ: "أحيوا قلوبكم بقلّة الضحك وقلّة الشبع" [١]. وثانيها كسر الشهوات والمعاصي؛ فالنفس إذا جاعت خضعت، وإذا شبت طغت وعصت، والجوع هو السور الذي يحمي العقل من غارات النفس الأمارة بالسوء، فلا تهتم بمعصية وهي في ذل الجوع لله [٢].

أما الثمرة الثالثة فهي دفع النوم وحضور اليقظة؛ فالذي يملأ بطنه يثقل جفنه، ويضيع منه ليله في رقادٍ كأنه الموت، أما خفيف الطعام فإنه بات والحوار حوله في يقظة تناجي الخالق وتذوق حلاوة القيام [٣]. والرابعة هي صحة البدن؛ وهي حقيقة علمية استقرت قبل أن تُكتشف مجهرياً، فالمعدة بيت الداء، والحمية أصل الدواء، وصيام الجوع لا صيام التخمّة هو الذي يمنح الجسد وقايته وعافيته [٤]. وخامس هذه الثمرات وأسمائها هي قلة المؤنة والاستغناء عما في أيدي الناس؛ إذ يتعلم العبد أن النفس إذا مُنعت من الحلال القريب (الطعام) قنعت بما أُوتيت، فإذا بها تترفع عن الحرام والتمسح بأعتاب الخلق. إن طرق أبواب الجنة يكون بالجوع، ومن اعتاد خفة الطعام طهرت نفسه من الطمع، وصار حراً بحق، لا يستعبده رغيّف ولا تذله شهوة، وبذلك يكتمل معنى "التقوى" التي هي ثمرة الصيام الكبرى وعنوان التحرر

[1] لسان العرب، مادة "حمز": الحمز هو القوة والشدة، ومنه قيل للرجل الحازم "خَمِيزُ الْفُؤَادِ"، والمراد بالحديث أن الأجر يعظم بعظم الجهد المبذول في مخالفة الهوى.

[2] جامع العلوم والحكم، في شرح حديث "ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه"، ويؤيده قوله ﷺ: "إن أهل الجوع في الدنيا هم أهل الشبع في الآخرة" [رواه الترمذي وحسنه].

[3] مستلهم من الآثار الواردة في قصص الأنبياء (موسى وعيسى عليهما السلام) حول المجاهدة بالصوم عن الطعام والشراب تهيئةً للوحي والمناجاة.

[4] التبيان في آداب حملة القرآن: أن صفاء القلب وإيقاء القريحة مرتبطان بخفة الطعام، كما قال أبو سليمان الداراني: "الجوع عند الله في خزائن لا يعطيه إلا لمن يحب."

[5] رواه الديلمي في مسند الفردوس بإسناد فيه مقال، لكن معناه يتسق مع الروح العامة للشريعة في تفضيل مجاهدة النفس.

[6] سورة يوسف: آية ٥٣: {إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَعَا رَبِّي}؛ والصيام بالجوع هو أعظم "الرحمة" التي تضبط جماح هذه النفس.

((أولاً)) معركة الذات: الانتصار على قيود الشهوة والنزوات العابرة.

إنَّ أشقَّ المعارك التي يخوضها الإنسان في رحلته الوجودية هي معركته مع مكُوناته الطينية، وتحديدًا "شهوتي البطن والفرج"؛ فهما المركز الذي تدور حوله معظم صراعات النفس، وهما المخطفُ الذي يشدُّ العقل إلى حضيض المادية [١]. ويأتي الصيام ليضع "الإنسان الخليفة" في مواجهة مباشرة مع هذه الغرائز، لا ليقمعها بالكلية، بل ليؤدبها ويهذب جامحها. فإذا كان العبد قد استطاع بإرادته الحرة أن يمتنع عن "الطعام المباح" من مطلع الفجر إلى مغرب الشمس، أليس ذلك أجدر به وأحرى أن يمتنع عن الحرام في سائر شهور العام؟ إنَّ الصيام هو تدريبٌ على سيادة الروح؛ فالعقل الذي يملك زمام نفسه أمام لذة حلال، هو عقلٌ عصيٌّ على الانزلاق في مسالك السوء أو اغتصاب حقوق الآخرين تحت وطأة الحاجة [٢]. إنَّ شهوة الفرج التي تشتعل جذوتها في الشباب، جعل الله لها الصيام "وجاء" أي وقايةً وحمايةً تكسر حدتها وتحفظ كرامة الإنسان من الابتذال [٣]. فبالصيام يغضُّ العبد بصره، ويكبح جماح خياله المريض عن السباحة في بحور الأوهام، فتسكن جوارحه وتصفو مرآة قلبه. ليس هذا فحسب، بل إنَّ رمضان هو انتصارٌ حاسم على "أمراض البطنة" والتخمة التي أثقلت أجساد الناس وعقولهم؛ فالمعدة التي اعتادت النهم أصبحت بيتاً للداء ومعيقاً عن الانطلاق نحو معالي الأمور [٤]. لقد جعل التكالب على المادة الناس يغرقون في غفلة مطبقة، لا يبالون من أين أتى المال ولا كيف صُرف، حتى غابت عنهم أنوار الآخرة. وهنا يبرز رمضان كموقفٍ للضمانر المتحجرة، ومنبّهٍ للنفوس الغارقة في لجج الدنيا، ليعلن أنَّ القوة الحقيقية ليست في الامتلاك والاستهلاك، بل في القدرة على التحرر من هذه "الأغلال" والارتقاء بالنفس إلى مقام التقوى الذي تتصاغر عنده كل لذة عابرة [٥].

[1] لسان العرب، مادة "صفا": الصفا هو خلو الشيء من الكدر، وصفاء القلب في لغة العارفين هو تجرده من كدر الغفلة الناتج عن التخمة.

[2] مستلهم من قول ذي النون المصري: "ما شبعْتُ يوماً قط إلا عصيْتُ أو هممْتُ بمعصية"، وهو تشخيص دقيق لأثر الشبع في تحفيز الغرائز.

[3] سورة السجدة: آية ١٦: {تَنَجَّافِي جُثُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ}؛ ولا تتجافى الجنب عن المضجع إلا إذا خفت المعدة من ثقل الطعام.

[4] مسند الإمام أحمد، حديث رقم ١٧١١٨: "ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه"، ويؤيده الأثر المشهور: "صوموا تصحوا" [رواه الطبراني].

[5] سورة البقرة: آية ١٨٣: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}؛ والتقوى هي كمال الاستغناء بالله عن سواه، وهي الغاية التي طالبت السيدة عائشة رضي الله عنها بقرع باب الجنة لأجلها بالجوع.

[1] لسان العرب، مادة "شهو": الشهوة هي نزوع النفس إلى ما تريده، وأصلها في المأكول والمشرب والمناكح، والصيام هو لجام هذه النزعات.

[2] سورة البقرة: آية ١٨٧: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا}؛ والتدريب في رمضان على المباحات يمنع الإنسان من الاقتراب من حمى المحرمات.

[3] صحيح البخاري، حديث رقم ٥٠٦٦: "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج.. ومن لم يستطع فعليه بالصيام فإنه له

((ثانياً)) دحر الشيطان: كيف يُضيق الصيام مجاري الغواية ويحطم أغلال الوسوسة؟

إنَّ معركة الإنسان مع الشيطان هي صراعٌ وجودي ممتد منذ لحظة الاستخلاف الأولى، حيث أعلن هذا العدو اللعين -في قمة سفهه وجراته- حرباً لا هوادة فيها على بني آدم، متوعداً بـ "الاحتناك" والاستئصال [١]. بيد أنَّ رحمة الخالق تجلت في شهر رمضان، حيث تُصَفِّد مَرَدَّة الشياطين وتُغْلِّ حركتهم، إما تقييداً مادياً بالسلاسل كما ورد في صريح السنة، أو تقييداً معنوياً بتباطؤ حركتهم لتكون كأنفاس النائمين؛ ليتسنى للصائم أن يُخرج عبادته نقية بريئة لا يشوبها كدر الغواية، فهي العبادة التي اختص الله بها ذاته العلية [٢].

إنَّ الصيام لا يكتفي بتصفيد الشياطين، بل يذهب إلى أبعد من ذلك بـ "تضييق الخناق" على من بقي منهم عبر استراتيجية "الجوع"؛ فإذا كان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فإنَّ الجوع هو الذي يُضيق تلك المسالك ويجفف منابعها [٣]. فالجوع يكسر حِدَّة الشهوة التي يتغذى عليها إبليس، ويقطع عنه المدد الذي يستمدّه من دم الإنسان المليء بآثار الشبع، مما يقوي عزيمة "الإنسان الخليفة" ويجعل استدراجَه للمصيدة الشيطانية أمراً عسيراً. إنَّ خَلَوَ البطن يثمر صفاء الذهن، وهذا الصفاء هو الدرع الذي يحمي خاطر الإنسان من وسوسة العدو، فضلاً عن أنَّ قلة الطعام تُقلِّل النوم، فتنبعث الجوارح للقيام الذي هو ذلٌّ للشيطان وإعلاءً لمنار العبودية. وكما قال يحيى عليه السلام لعدو الله: "لا أشبع أبداً"، إدراكاً منه أنَّ الشبع غفلةٌ يقتنصها اللعين [٤].

علاوةً على ذلك، يدخل الصائم في كنف "المعية الإلهية"، فبإضافته لهذه العبادة لله، صار من زمرة العباد الذين قال الله فيهم: {إِنَّ عِبَادِي لَأَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} [٥]. وحتى أنفاس الصائم -التي هي عند الله أطيب من ريح المسك- تتحول إلى حجابٍ من نور يزود عنه وعن غيره من المصلين غارات الوسوسة، كما رُوي عن حيرة الشيطان بين الصائم النائم والمصلي القائم. ثم يكتمل الحصار بغض البصر، الذي يسدُّ في وجه الشيطان سهمه المسموم، وبإمساك اللسان الذي هو أحوج شيءٍ إلى طول حبس؛ ليُهْزَم الشيطان شرَّ هزيمة في محراب الصوم، ويخرج العبد من رمضان وقد انتصر في معركته الكبرى، مستعيداً سيادته وحريته من أغلال الغواية

وجاء". والوجاء لغة: هو الوقاية والحماية.

[4] مسند الإمام أحمد، حديث رقم ١٧١١٨: "بحسب ابن آدم لقيمات يُقمن صلبه"، وهذا هو جوهر الانتصار على التهمة في مدرسة الصيام.

[5] سورة الذاريات: آية ٥٠: {فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ}؛ والفرار هنا هو انتصار على جاذبية الأرض وشهواتها التي تمنع العقل من شهود الحقيقة.

((ثالثاً)) الحرب على العجز: رمضان عدو الكسل والخمود والتوكل.

[الصفحة الأولى: فقه الحركة وضبط موازين اليوم]

إنَّ يوم المسلم في رمضان يُدار بأربعة محاور كبرى: (العمل، والنوم، والعبادة، واللهو)؛ فمن أحسن ضبط هذه الأربعة وفق الميزان النبوي، كان متبعاً راشداً، ومن أطلق لها العنان بغير نظام، فقد وقع في شرك الابتداع وضياح العمر [١]. إنَّ الصيام في حقيقته لم يكن يوماً ذريعةً للكسل، ولا مسوغاً للركون إلى النوم بحجة الإعياء؛ بل هو طاقةٌ دافعة تستحث الهمم نحو البناء والإنتاج. لقد كان النبي ﷺ وصحابته يدركون أنَّ "العمل عبادة" لا تقل شأنًا عن الصيام والقيام؛ وحين رأى عيسى عليه السلام رجلاً منقطعاً للعبادة سأل: "من يعولك؟" قال: "أخي"، فقال: "أخوك أعبد منك" [٢]. وهذا ما سار عليه الفاروق عمر حين طرد المنقطعين في المساجد قائلاً: "الحق بأخيك فاعمل معه، فإنَّ أخاك خيرٌ منك"، فالسما لا تمطر ذهباً ولا فضة، ويُدَّ العامل المكثِّ بالنهار في نهار رمضان هي يدٌ يحبها الله ورسوله [٣].

إنَّ السعي على المعاش في نهار رمضان هو "جهادٌ في سبيل الله" بنص الحديث الشريف؛ فمن خرج ليسعى على أبوين شيخين، أو ذرية ضعاف، أو ليعفَّ نفسه عن المسألة، فهو في طريق الحق لا في طريق العجز [٤]. وما يحدث اليوم من تكاسل العمال، وإهمال المصالح، وتعطيل شؤون البلاد والعباد بحجة الصيام، هو قلبٌ للحقائق وتشويه لجمال هذا الدين؛ فكيف يكون الصيام —وهو وسيلة القوة والتحرر— سبباً في انهزام الأمة وضعف إنتاجها؟ إنَّ أفضل الطعام ما كان من كسب اليد، ونبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده وهو يصوم شطر الدهر [٥]. وإذا كان الصيام يغفر الذنوب، فإنَّ العمل يسبقه في ذلك؛ إذ "من بات كالأل من عمل يده بات مغفوراً له" [٦]. لقد كانت غزوة بدر الكبرى وفتح مكة العظيم في رمضان، فكانت البطون خاوية، ولكنَّ السواعد كانت تبني مجد الأمة وتذك حصون الظلم،

[1] سورة الإسراء: آية ٦٢: {رَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرُمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا}؛ والاحتناك لغة: الاستيلاء والتمكن من القيادة كاللجام في حنك الدابة.

[2] صحيح البخاري، حديث رقم ١٨٩٩: "إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين". والمردة: هم عتاة الشياطين ومريدو الشر.

[3] صحيح مسلم، حديث رقم ٢١٧٤: "إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم". ومنه قيل: فضيقوا مسالكه بالجوع.

[4] مستلهم من الأثر في مناجاة نبي الله يحيى عليه السلام للشيطان، وهو يوضح أنَّ الشبع بوابة الغفلة، والجوع حصن الذكر.

[5] سورة الحجر: آية ٤٢؛ وهي إعلانٌ إلهي بسقوط سلطان الشيطان عن عباد الله المخلصين الذين يتقربون إليه بالصيام.

[6] لسان العرب، مادة "لسن": اللسان أداة النطق، وحبسه في الصوم يعني قطع مادة "الرفث" والجدل التي يستثمرها الشيطان لتدمير أجر الصائم.

لتنبت أنَّ رمضان هو شهر "العمل والفتح"، لا شهر "النوم والبطالة"^{١٢}.

رمضان عدو الكسل والخمول فقه السكن واليقظة]

لقد جعل الله الليل سكناً والنهار معاشاً، غير أنَّ بعض الناس قد ضلوا الطريق فقلبوا الفطرة؛ فصار ليل صيامهم سهراً ولهواً، ونهارهم خملاً ونوماً، وهو وهم شيطاني يستهدف ضياع العمر [١]. إنَّ النوم في رمضان "عبادة" إذا كان قصده التقوي على قيام الليل، أما إذا زاد عن ثمان ساعات صار عجزاً وعبثاً، فكثرة النوم تتبع كثرة المعاصي؛ لذا قيل إنَّ "نوم الظالم عبادة" لأنه كفَّ لشَرِّه عن الناس والشجر والدواب [٢]. أما "الإنسان الخليفة" فليله مناجاة، إذ لا يستقيم ادعاء المحبة مع النوم عن المحبوب عند جنوح الليل؛ فالقيام هو عز المؤمن وفخر صومه، وباب مغفرة ما تقدم من ذنبه [٣].

إنَّ العبادة في رمضان لا تقتصر على المحاريب، بل تمتد لتشمل "المحيا والممات"؛ فإصلاح بين الناس عبادة، والكلمة الطيبة عبادة، ومعاونة أهل البيت في شؤونهم - كما كان يفعل النبي ﷺ في مهنة أهله - هي من صلب العبادة [٤]. أما الوقت الفائض، فلا يُشغل باللغو والقليل والقال، بل يُعمر بـ "خلوة المصحف"؛ فالقرآن والقرآن نزل في رمضان، وهما يشفعان للعبد يوم القيامة [٥]. إنَّ من عجز عن قرع باب الجنة بالصيام والجوع، فقد ضل سعيه؛ فالوقت في رمضان أثمن من أن يُنفق في لهوٍ يحجب القلب عن ربه. لذا، كان لزاماً على المسلم أن يروح عن قلبه ساعة وساعة بالمباح، شريطة ألا تسرق هذه الساعة عمره، ليبقى رمضان مدرسةً للارتقاء، لا محطةً للتيه والضياع [٦]^{١٣}.

((رابعاً)) فقه الانتصار على النفس: كسر "الجُمُوح" وامتلاك الخطام.

إنَّ أعدى أعداء الإنسان ليست خصوماً خارج حدود جسده، بل هي "نفسه" التي بين

[1] لسان العرب، مادة "ضبط": الضبط هو إحكام الشيء وحفظه، وضبط اليوم في رمضان هو إحكام تقسيم الوقت بين عمارة الأرض وعمارة الروح.

[2] مستلهم من الأثر المشهور في كتب الزهد والرقائق، والذي يرسخ قيمة الكد على العيال والعمل في نهار الصيام.

[3] سورة الملك: آية ١٥: {فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهَا}؛ والمشي في المناكب لا يتوقف بقدم رمضان، بل يزداد بركة.

[4] صحيح الترغيب والترهيب: "إن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله...؛" وهو ردٌ مفهم على من يرى العمل عائناً عن العبادة.

[5] صحيح البخاري، الحديث رقم ٢٠٧٢: "ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده."

[6] المعجم الأوسط للطبراني: "من بات كلاً من عمل يده بات مغفوراً له"، والكال هو المتعب من كد اليمين وعرق الجبين.

[1] سورة النبا: الآيات ٩-١١: {وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا}؛ ورمضان يأتي ليؤكد هذه الفطرة لا ليمحوها.

[2] مستلهم من كلام الحكماء في "نوم الظالم"، حيث يكون خموده راحةً للخلق من أذاه، بخلاف الصالح الذي يتقوى بنومه على عمارة وقته بالذكر.

[3] صحيح البخاري، الحديث رقم ٢٠٠٩: "من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه."

[4] صحيح البخاري، الحديث رقم ٦٧٦: سُئِلَتْ عائشة ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: "كان يكون في مهنة أهله."

[5] مسند الإمام أحمد، الحديث رقم ٦٦٢٦: "الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة."

[6] سورة الأنعام: آية ١٦٢: {قُلْ إِن صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}؛ وهي القاعدة الكلية التي تحول النوم والعمل والراحة إلى عبادات مقبولة بإذن الله

جنبية؛ تلك النفس الأمارة بالسوء التي تهوى الركون إلى الراحة، وتدعو صاحبها إلى التنازل عن الطاعة، وتنازعه في كل مقام [١]. ومن هنا كان "جهاد النفس" هو الجهاد الأكبر في ميزان النبوة؛ لأنَّ المجاهد الحقيقي ليس من يحمل السيف فحسب، بل هو "من جاهد نفسه في طاعة الله" [٢]. لقد كان السلف يدركون أنَّ هذه النفس دابةٌ جُمُوح، لا تستقيم بغير لجامٍ شديد، وأنها إذا لم تُشغل بالحق والعبادة، غلبت صاحبها بالباطل والمعصية [٣].

ويبرز رمضان هنا كأقوى سلاحٍ للمؤمن في معركته مع ذاته؛ فإذا كانت النفس تألف النوم عن الفجر، جاء رمضان ليوقطها في السحر، وإذا كانت تشجُّ بالمال، جاء رمضان ليذكرها بالصدقة والجود. إنَّ عبقرية الصيام تكمن في "سياسة المنع"؛ فإذا كبح العبد جماح نفسه عن "الحلال" (من طعام وشراب وعلاقة زوجية) في نهار رمضان، تقوت لديه ملكة العزيمة، وصار منعها عن "الحرام" في سائر العام أهون وأيسر [٤]. فالنفس كالطفل إن تركته شبَّ على حب الرضاع، وإن فطمته ينفطم؛ والصيام هو "الفطام الأكبر" الذي يحرر الإنسان من عبودية جسده ليكون بالروح "إنساناً خليفة" لا مجرد كائنٍ بيولوجي تتقاذفه الرغبات [٥].

إنَّ الصيام يُقيد مُطلق النفس، ويمسك أبقها، ويملك خطامها؛ فتدُلُّ بعد عزة، وتلين بعد قسوة، وتنشغل بميادين الذكر والتسبيح والقيام عن ملاحقة سراب المعاصي. إنه انتصارٌ للوعي على الغريزة، حيث يُثبت الصائم لنفسه وللعالَم أنَّه ليس عبداً لشهوته، بل هو عبدٌ لله وحده، يمتثل لأمره في المنع والإباحة، فتستكمل النفس فضائلها وتستردُّ فطرتها السوية التي حجبها ركام العادات والنزوات [٦].

بهذا اكتمل العنوان الرابع من المحور الثاني.

((خامساً)) الانتصار على الاستبداد: كيف يصنع الصائم إرادة تأبى الخضوع لغير الله؟

-
- [1] سورة يوسف: آية ٥٣: {إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَزَقَنَا رَبِّي}؛ والرحمة هنا تتجلى في الصيام الذي يهذب حذتها.
- [2] سنن الترمذي، الحديث رقم ١٦٢١: "المجاهد من جاهد نفسه في الله".
- [3] لسان العرب، مادة "جَمَح": الجُمُوح من الدواب هو الذي يغلب صاحبه فلا يملكه، وكذلك النفس إذا تتابعت في هواها.
- [4] مستلهم من قول سفيان الثوري: "ما عالجت شيئاً أشد عليَّ من نفسي"، والصيام هو أمضى علاج لمكابدة هذه النفس.
- [5] مستلهم من أبيات البوصيري: "والنفس كالطفل إن تهمله شبَّ على... حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم".
- [6] سورة الشورى: آية ٢٠: {وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}؛ والصيام هو الوقاية العملية من شح النفس وهواها.

إنَّ الاستبداد في حقيقته لا يقوم إلا على "استضعاف" النفوس وقهر إرادتها، وتحويل الشعوب إلى قطيع يحركه الخوف أو تسيطر عليه الحاجة؛ وهنا يبرز رمضان كأعظم "مدرسة للتحرر" من جبروت البشر وقيود الأرض. فالمسلم الذي يمثل لأمر الله بالإمساك عن ضرورات الحياة (الطعام والشراب) يتدرب عملياً على أنَّ "مصدر حياته" و"سر وجوده" بيد الخالق وحده، لا بيد مستبد يملك ميزانية أو يمنع عطاءً [١]. إنَّ الصيام يغرس في روح الصائم كبرياء الإيمان؛ فمن استعلى على نداء جسده ليرضي ربه، لن تتحني هامته أمام طاغية يساومه على كرامته أو عقله [٢].

إنَّ "فلسفة التحرر" في رمضان تقوم على تحطيم "صنم الخوف"؛ فالصائم يمارس عبادته في خفاء لا يرقبه فيها إلا الله، وهذا الإخلاص يُنمي في النفس "الرقابة الذاتية" التي تحررها من سطوة الرقيب الأرضي ومن قيود التبعية العمياء. إنَّ الاستبداد يعتاش على "الجمود والتقليد"، بينما رمضان يبعث في النفس "قوة التغيير" والقدرة على كسر الأنماط المفروضة؛ فالأمة التي تجوع معاً وتفطر معاً بأمر ربها، هي أمة تستعيد "وحدتها الإيمانية" التي هي الدرع الحصين ضد محاولات التفتيت والاستعباد [٣].

لقد كان رمضان دوماً هو الميقات الذي تتحطم فيه عروش الظلم؛ لأنَّ الصائم يحمل روحاً "قتالية" تأبى الدونية، ويستشعر عزة الاستخلاف التي تجعله يرى المستبد بشراً ضعيفاً لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً [٤]. إنَّ الصيام يُعلمنا أنَّ "الحرية" تبدأ من الداخل، ومن ملك زمام نفسه بالجوع، ملك زمام واقعه بالحق؛ فلا إلحاد يحجب عقله عن الخالق، ولا استبداد يغلب يده عن الفعل، ليخرج من رمضان "إنساناً خليفة" حراً، شامخاً، لا ينكسر إلا في ركوع أو سجودٍ لرب العالمين [٥].

((سادساً)) محور التمكين: استعادة دور "الإنسان الغالب" في واقع الأمة المعاصر.

[1] لسان العرب، مادة "بدد": الاستبداد هو الانفراد بالشيء، والمستبد هو الذي يفرض إرادته قسراً، والصيام يكسر هذه الإرادة بربط العبد بمراد الله وحده.

[2] سورة آل عمران: ١٧٥: {فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}؛ والصيام هو التطبيق العملي للتحرر من خوف المخلوق طلباً لرضا الخالق.

[3] سورة القصص: آية ٤: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ}؛ ورمضان يوحد هذه الشيع خلف إمام واحد وهدف واحد، فيبطل مفعول الاستضعاف.

[4] مسئلتهم من فكرة "تحرير العقل من الاستبداد" في مشروعه: أنَّ عبودية الله هي الطريق الوحيد للحرية من عبودية البشر.

[5] سورة الذاريات: آية ٥٦: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}؛ وكمال العبودية في التحرر من كل ما سوى الله، وهو ما يصنعه الصيام في نفس المؤمن.

إنَّ الغاية القصوى من مدرسة الانتصار الرمضانية هي صناعة "الإنسان الغالب"؛ ذلك النموذج الذي استعاد سيادته على ذاته، فأصبح مؤهلاً لاستعادة سيادته في كونه. إنَّ واقع الأمة المعاصر الذي يعاني من الوهن والتبعية هو نتيجة حتمية لضياح "روح الصيام" وتحول العبادة إلى طقوس جوفاء؛ بينما التمكين في الرؤية الإسلامية يبدأ حين يتحول رمضان من "شهر انتظار" للفرج إلى "شهر صناعة" للتمكين [١]. إنَّ الإنسان الغالب هو الذي تخرج من معسكر الجوع بقلب لا يرهب إلا الله، وعقلٍ تحرر من "النمطية المادية" التي تفرضها حضارات الاستهلاك، فأدرك أنَّ القوة الحقيقية تنبع من الاتصال بالقيوم لا من تكديس المادة [٢].

إنَّ التمكين ليس هبة تُعطى للعاجزين، بل هو استحقاقٌ يرفعه الصائمون بجهادهم؛ فالمسلم الذي انتصر على "أنا"ه في رمضان، هو القادر على أن يقود مسيرة التغيير في واقعه الفكري والسياسي والاجتماعي. إنَّ رمضان يعيد صياغة "عقلية الأمة" من عقلية الاستضعاف التي تبرر الفشل بظلم المستبدين أو كيد الملحين، إلى عقلية "الفعل" التي ترى في الصيام عودةً لمنهج "بدر" و"فتح مكة"؛ حيث كانت القلة الصائمة هي الغالبة بإيمانها وعملها [٣]. إنَّ استعادة دور الإنسان الخليفة تعني أن يخرج الصائم من شهره وقد ملك سلاحين: "البصيرة" التي تفرق بين الحق والباطل، و"العزيمة" التي لا تلين أمام عواصف التشكيك أو قيود التبعية. وبذلك، يتحول الصيام من مجرد إمساكٍ عن المباحات إلى انطلاقٍ نحو "المكرمات"، ليكون المسلم في واقعه المعاصر شاهداً على الناس، ومنازعةً للعدل والحرية، وحاملاً لرؤية التوحيد التي تحرر العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد [٤].

((سابعاً)) الانتصار على الغضب والشح واللسان والعين: معركة الجوارح

إنَّ حقيقة الصيام لا تكتمل إلا بانتصار المؤمن في معركة "الأخلاق"؛ فالجوع والعطش ليسا غاية في ذاتهما، بل هما وسيلتان لتطويع النفس وكسر حدتها أمام أربعة أعداء يتربصون بقلب الإنسان: الغضب، والشح، واللسان، والعين.

1. الانتصار على الغضب:

الغضب ثورة ونار تتاجج، وهو العدو الذي يوقع صاحبه في مزلق الندم ويهوي به في غيابات الحزن [١]. وقد جعل النبي ﷺ الصيام "جُنَّة" (أي وقاية) من هذا

[1] لسان العرب، مادة "مكن": المَكْنُ والمَكَانَةُ: هي المنزلة الرفيعة والقدرة على الفعل، والتمكين الإلهي مشروطٌ بصلاح النفوس كما في قوله تعالى: {وَلْيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ} [النور: ٥٥].

[2] سورة آل عمران: آية ١٣٩: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}؛ والعلو هنا هو الاستعلاء الإيماني الذي يصنعه الصيام في نفس المؤمن.

[3] مسئلتهم من روح مشروعك في "تحرير العقل من الجمود": التمكين الحقيقي يبدأ بكسر الجمود الفكري واستعادة المبادرة التاريخية.

[4] سورة الحج: آية ٤١: {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ}؛ وهذا هو البيان الختامي لمهمة الإنسان الغالب الذي تخرج من مدرسة رمضان.

الانفجار النفسي؛ ففي الوقت الذي يتذرع فيه البعض بالصيام لتبرير فظاظتهم، يأتي التوجيه النبوي ليقبل الموازين: "فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يفسق، فإن امرؤ سابه أو شاتمته فليقل إنني صائم" [٢]. إن خلو البطن يؤدي إلى صفاء الذهن، وهذا الصفاء هو الذي يمنح الصائم القدرة على "كظم الغيظ"؛ فالصائم الحقيقي هو من ملك نفسه عند الغضب، محولاً نار الانفعال إلى برد وسلام بذكر الله، ليتحقق فيه وصف "الصبر" الذي هو نصف الإيمان [٣]

2. الانتصار على الشح والبخل:

الشح عدو يطرد صاحبه من رحمة الله ويجره نحو العسر والتردي [٤]. ويأتي رمضان ليحطم أغلال البخل في النفوس؛ فالمسلم حين يذوق مرارة الجوع، يتحرك في قلبه وجدان الرحمة بالمحتاجين، فيتحول من الاستمسك إلى الإنفاق. لقد كان النبي ﷺ "أجود بالخير من الريح المرسلة"، وكان جوده يبلغ ذروته في رمضان [٥]. فالصيام يربي في النفس "الزهد فيما في اليد"، ويقين المؤمن بأن الجود طريق الخلود في الجنة التي أقسم الله ألا يجاوره فيها بخيل.

3. الانتصار على اللسان والعين:

اللسان هو مجمع المخاطر، والجوارح كلها تناديه كل صباح: "اتق الله فينا، فإن استقممت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا" [٦]. فصيام اللسان هو كفه عن الغيبة والنميمة وقول الزور؛ إذ لا معنى لصيامٍ يمتنع فيه العبد عن الطعام الحلال ثم يفطر على "لحوم الناس" بالغيبة. أما العين، فصيامها هو الكف عن "النظرات المسمومة" التي هي سهام إبليس؛ فمن تركها مخافة الله أبدله الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه. وبدلاً من النظر إلى المحرمات، يوجه الصائم عينه لعبادة "النظر"؛ في المصحف، وفي موضع السجود، وفي آيات الله الكونية، ليكون رمضان انتصاراً شاملاً للجوارح والروح معاً [١٧]

((ثامناً)) معارك اليقين: رمضان ميقات الفتوحات والتحويلات الكبرى

إنَّ المتنبع لتاريخ الإسلام يلحظ ظاهرة تستوقف العقل؛ وهي أنَّ أعظم الانتصارات التي غيرت وجه التاريخ لم تقع في أوقات الرخاء والشبع، بل وقعت والمؤمنون في

[1] لسان العرب، مادة "غضب": الغضب هو غليان دم القلب لطلب الانتقام، والصيام يبرد هذا الغليان ببرد السكينة.

[2] صحيح البخاري، حديث رقم ١٩٠٤: "الصيام جُنة.. فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إنني صائم."

[3] سنن ابن ماجه، حديث رقم ١٧٤٥: "الصبر نصف الإيمان، والصوم نصف الصبر."

[4] سورة الليل: الآيات ٨-١٠: {وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى.}

[5] صحيح البخاري، حديث رقم ٦: "كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان."

[6] سنن الترمذي، حديث رقم ٢٤٠٧؛ وهو يوضح سيادة اللسان على بقية الأعضاء.

[7] مستلهم من حديث "النظرة سهم من سهام إبليس مسموم، من تركها من مخافتي أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه" [رواه الحاكم]

قمة مجاهدتهم لأنفسهم بالصيام. إنَّ ربط "بدر الكبرى" و"فتح مكة" بشهر رمضان لم يكن قبيل الصدفة، بل هو إشارة ربانية إلى أنَّ الأمة التي تنتصر على "داخلها" بالجوع والظما، يمنحها الله مفاتيح "الخارج" بالنصر والتمكين [١]. ففي رمضان، تتحول الطاقة الروحية من "السكون" إلى "الحركة"، ويصبح الصائم في حالة استنفارٍ قصوى، حيث يترفع عن حاجات الجسد ليتصل بمصدر القوة المطلقة، فتنضال أمامه جيوش الأرض وعتاد الطغاة [٢].

في "غزوة بدر"، كانت القلة المؤمنة صائمة، تواجه الكثرة الطاغية؛ فكان الجوع وقوداً لليقين، وكان العطش سبيلاً لريِّ الروح بمدد الملائكة. لقد أثبت رمضان في بدر أنَّ "العبادة القتالية" ليست مجرد شعار، بل هي واقعٌ يتحول فيه الصائم إلى "إنسانٍ غالب" لا يعترف بحدود المادة [٣]. وفي "فتح مكة"، كان الصيام هو المناخ الذي تهيأت فيه النفوس لدخول بيت الله الحرام بغير كبيرٍ ولا خيلاء، بل بروحٍ خاشعة متبذلة طهرها الصوم من حظوظ النفس. إنَّ هذه الفتوحات الرمضانية هي الرد القاطع على كل من يحاول تصوير رمضان كشهرٍ للخمول أو "البيات الشتوي"؛ بل هو شهر "الزحف المقدس" نحو الحق، وتحطيم أصنام الجهل والشرك والاستبداد [٤]. إنَّ الأمة التي استطاعت أن تفتح القلوب والعواصم وهي صائمة، هي أمةٌ تملك سرَّ السيادة؛ لأنها حررت عقلها من قيود الحاجة المادية، وارتبطت بميقات الوحي الذي بدأ في رمضان، لتستأنف دورها الحضاري كشاهدةٍ على العالمين [٥]^{١٨}

((تاسعاً)) عودة روح الانتصار للأمة باستلهاهم روح رمضان: ملحمة

العاشر من رمضان نموذجاً

إنَّ استعادة الأمة لسيادتها ودورها الحضاري ليست رهينة بكثرة العتاد والمادة فحسب، بل هي مرتبطة أساساً بمدى قدرتها على استلهاهم "روح رمضان" التي تحول العبادة إلى طاقةٍ محرّكة للواقع. إنَّ دروس الماضي لم تكن مجرد حكايات تُروى، بل هي براهين حية على أنَّ "عقلية الصائم" هي عقلية الفاتح الذي لا يعرف المستحيل. وما نصر العاشر من رمضان (١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م) منا ببعيد؛ حين استعادت الأمة كرامتها وكسرت أسطورة الجيش الذي لا يُقهر، في ذات الميقات

[1] ^{١٨} لسان العرب، مادة "فتح": الفتح هو نقيض الإغلاق، وفتح القلوب بالهداية يسبق فتح البلاد بالسيادة، ورمضان هو مفتاح النفوس الأول.

[2] سورة الأنفال: آية ٦٥: {إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ}؛ والصيام هو أرقى مدارس الصبر التي تصنع هذا الفارق العددي.

[3] سورة آل عمران: آية ١٢٣: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ}؛ والذلة هنا هي الافتقار والخضوع لله، وهو ما يحققه الصيام في أسمى صوره.

[4] مستلهم من روح مشروعك في "تحرير العقل من الجمود": أنَّ الفتح الحقيقي يبدأ بفتح مغاليق العقول، والصيام هو الذي يكسر أقفال الشهوة عن العقل.

[5] سورة البقرة: آية ١٨٥: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ}؛ فارتباط الفتوحات بنزول الوحي في شهر واحد يؤكد أنَّ رمضان هو زمن "الميلاد والسيادة".

الذي شهد بديراً وفتح مكة [١].

لقد أثبت "العاشر من رمضان" أنَّ الجوع والعطش لم يكونا يوماً سبباً في الوهن، بل كانا وقوداً لليقين؛ حيث عبر الجندي المسلم وهو صائم، مستعيناً بربه، محطماً السواتر الترابية والنفسية التي بناها الاستبداد والاحتلال [٢]. إنَّ هذا الانتصار المعاصر هو رسالةٌ للأجيال بأنَّ التمكين متاحٌ في كل زمان إذا ما عادت الأمة إلى "مربع الصدق" مع الله، وتحررت من أغلال التبعية والجمود. إن استلهم روح رمضان يعني أن نُحيي في نفوسنا "إرادة العاشر من رمضان" في معاركنا الفكرية ضد الإلحاد، وفي معاركنا السياسية ضد الاستبداد، وفي معاركنا الأخلاقية ضد الانحلال [٣]. إنَّ الأمة التي تملك "سلاح الصيام" تملك مفاتيح الغلبة؛ لأنها أمةٌ لا تُهزم أمام حاجات جسدها، فكيف تُهزم أمام أعداء عقيدتها؟ إنَّ عودة روح الانتصار تبدأ من "محراب الصوم"، حيث يُصنع الإنسان الذي يرى في رمضان ميقاتاً للتحرر والسيادة، لا مجرد طقوسٍ للراحة والاستهلاك [٤].^{١٩}

المحور الثالث: العبادة الجامعة (الجسر بين الروح والنص)

تمهيد المحور: (في بيان المحتوى والدلالة)

يأتي هذا المحور ليعرض الصيام كـ "عبادة توازنية" فريدة، قادرة على صهر المدارس الفكرية الإسلامية في بوتقة واحدة. فإذا كانت الصراعات التاريخية والجمود الفكري قد فرق الأمة بين "ظاهرية جافة" تقف عند حدود النصوص وتفصيل الأحكام، وبين "باطنية شاطحة" تذوب في الأنواق والمواجيد على حساب الشريعة، فإنَّ الصيام هو "الجسر" الذي يربط بين ضفتي النهر. إنَّ الصيام في جوهره هو "نصٌّ" منضبط بمواقيت وأركان، وهو في الوقت ذاته "روحٌ" تسبح في ملكوت القرب والوجدان. نحن نناقش هنا كيف يحرر الصيام العقل من "الجمود التقليدي" الذي يحول العبادة إلى آلة صماء، ومن "التحلل الفكري" الذي يفقد العبادة هويتها. إنَّ الهدف من هذا المحور هو استعادة "العبادة الشاملة" التي تُحيي القلب دون أن تهدم النص، وتُقيم النص دون أن تقتل الروح. ((أولاً)) **فقه السلفية والصوفية في الصيام: الصيام جامعاً لا مفزقاً**

[1] لسان العرب، مادة "نصر": النصر هو الإعانة على العدو، واستلهم الروح يعني استحضار القوة المعنوية الكامنة في أصل المعتقد.

[2] سورة البقرة: آية ٢٤٩: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ}؛ وكان نصر العاشر من رمضان تجسيدا معاصراً لهذا القانون الإلهي.

[3] مستلهم من رؤيتك في "تحرير العقل من الاستبداد والجمود": أنَّ النصر العسكري هو ثمرة للانتصار النفسي والفكري الذي يُحققه الصيام.

[4] سورة آل عمران: آية ١٦٠: {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ}؛ والارتباط برمضان هو أقصر الطرق لاستئصال هذا النصر الإلهي من خلال كمال العبودية.

لقد تباينت الأنظار في فهم حقيقة الصيام بين مدرسة تعتني بـ "فقه الأبدان" وأخرى تذوب في "فقه القلوب"، ولكنَّ الصيام الحقيقي هو الذي يجمع شتات الفكرين:

1. الصيام في الرؤية السلفية (فقه النص والاتباع):

تركز المدرسة السلفية في الصيام على "تحقيق التوحيد" و"الانضباط بالدليل"؛ فالصيام عندها هو امتثالٌ مطلق للأمر الإلهي، ووقوفٌ دقيق عند حدود السنة النبوية في السحور والفطر والكف عن المفطرات. إنها تعتني بـ "صحة العبادة" وبطلانها، وتحرص على تخليص الصوم من البدع والمحدثات. هذا الانضباط هو الذي يحمي الصيام من التحول إلى طقوس شعورية غامضة، ويجعل منه "مدرسة للاتباع" لا للابتداع [١]

2. الصيام في الرؤية الصوفية (فقه الروح والمجاهدة):

بينما تركز المدرسة الصوفية (في نقائها الأول) على "أسرار الصيام" ومقاماته؛ فالصوم عندها ليس إمساكاً عن الطعام فحسب، بل هو "صوم الخصوص" و"خصوص الخصوص"؛ أي صوم الجوارح عن الآثام وصوم القلب عن الأغيار. هي ترى في الصيام رحلة "ترقي" في مدارج القرب، ومجاهدةً لتلطيف الكثافة الطينية في الإنسان لتشرق فيها الأنوار الإلهية [٢]

3. الصيام كجسر جامع:

هنا يبرز الإعجاز التشريعي في الصيام؛ فهو "جامعٌ" بين المدرستين؛ فلا يقبل الله صياماً روحانياً يغفل عن "أحكام النص" ومواقفته، كما لا يرضى بصيامٍ آليٍّ يفتقد "خشوع الروح" وأدب القلب. الصيام الحقيقي هو "سلفيُّ الانضباط" (باتباع السنة) و"صوفيُّ الوجد" (بصدق التوجه) [٣]. إنَّ الجوع في رمضان يوحد الجميع؛ فالسلفي يجوع امتثالاً للنص، والصوفي يجوع تصفيةً للروح، وكلاهما يلتقيان عند بوابة "التقوى". إنَّ هذا الفهم التكاملي هو الذي يكسر "الجمود والتقليد"؛ فلا الجمود السلبي على الظاهر يكفي، ولا الشطح بعيداً عن النص يغني، بل هو "الاعتدال" الذي يحرر العقل من التعصب المدرسي لآفاق العبودية الشاملة [٤] ٢٠٤

((ثانياً)) الصيام ومواجهة الإلحاد: كيف يحطم الجوع كبرياء المادية؟

1. ماهية الإلحاد: تيه المادة وغطرسة العقل.

[1] لسان العرب، مادة "سلف": السلف هم المتقدمون، وفقههم قائم على "الأثر" والانضباط بمشكات النبوة، وهو ما يحفظ للصيام هيكله الشرعي.

[2] مسئلتهم من "إحياء علوم الدين" للإمام الغزالي، في تفصيله لمراتب الصيام (صوم العموم، وصوم الخصوص، وصوم الخصوص).

[3] سورة البقرة: ١٨٥: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَذَاكُمْ}؛ فإكمال العدة هو انضباط النص، والتكبير هو فيض الروح.

[4] مسئلتهم من رؤيتنا في "تحرير العقل من الجمود والتقليد": إنَّ الجمع بين الروح والنص هو أعظم عملية تحرير للعقل من قيد التعصب المذهبي الضيق.

الإلحاد في جوهره ليس مجرد "شبهات عقلية"، بل هو حالة من "الاستغناء المادي" وتآليه المحسوس؛ حيث يتوهم الإنسان أنه كائن مكتفٍ بذاته، مستغنٍ بقوانين الطبيعة عن خالقها. إن الإلحاد المعاصر يقوم على "حجب العقل عن الخالق" من خلال إغراقه في المادية المفرطة، وتحويل الجسد إلى صنم يُعبد بالشهوات واللذات، مما يورث قسوة في القلب وجموداً في البصيرة تجعل المرء لا يرى وراء المادة معنى [١]

2. كيف يقاوم الصيام الإلحاد؟ (تذكير بالافتقار).

يأتي الصيام ليهدم هذا البناء الإلحادي من أساسه عبر تجربة "الاضطرار والجوع"؛ فالمسلم حين يمتنع عن الطعام والشراب، يكتشف في لحظات معدودة مدى "ضعفه وهشاشته". إن الجوع يحطم كبرياء "الإنسان الإله" الذي يروج له الإلحاد، ويذكره بأنه عبدٌ فقير لا يملك لنفسه نفعاً ولا حيوية إلا بمدد من الله. الصيام يعيد العقل من سياج "المادية الصماء" إلى رحاب "الفطرة"؛ ففي لحظة الظمأ الشديد، تسقط كل النظريات الفلسفية المبرراتية، ولا يبقى في الوجدان إلا نداء الفطرة الصارخ بالافتقار إلى الخالق سبحانه وتعالى [٢]

3. الصيام جُنة: الوقاية من وباء الإنكار.

لقد وصف النبي ﷺ الصيام بأنه "جُنة" (أي وقاية وحماية)، وهو في هذا السياق وقاية من فيروسات الإلحاد والشك؛ فبواسطة "تضييق مسالك الشيطان" بالجوع، يتم تطهير العقل من الأوهام المادية التي تُغذيها التخمّة والغفلة. الصيام يحمي العقل من "الجمود" على المحسوسات، ويفتح له آفاق "الغيب"؛ فمن استطاع أن يرى في "النهار" آية مستقلة وفي القوانين الفيزيائية "أمراً مستمراً" من الله لا خاصية ذاتية للمادة، فقد نجا من فخ الإلحاد [٣]. إن الصيام يعيد ترتيب العلاقة بين الخالق والمخلوق؛ فيدرك الصائم أن المادة خادمة لا مخدومة، وأن الروح هي الحقيقة الباقية التي تتجاوز حدود الجسد الفاني [٤]

((ثالثاً)) الصيام ومواجهة الجمود والتقليد: تحرير العقل من "النمطية"

والتبعية.

1. ماهية الجمود والتقليد: قيود العقول المتحجرة.

[1] "لسان العرب، مادة "لحد": الإلحاد هو الميل عن القصد، وفي الاصطلاح هو الانحراف عن الفطرة بإنكار الخالق. وهو ما نبهت عليه في مشروعك حول "الفلسفة الحديثة وحجب العقل".

[2] سورة فاطر: آية ١٥: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾؛ والجوع هو أبلغ درس عملي في تحقيق هذا الفقر الوجودي.

[3] مسئلتهم من رؤيتنا الخاصة: "أن القوانين الفيزيائية هي أمر مستمر من الله"، والصيام يكسر العادة ليدرك العقل أن مسبب الأسباب هو الله لا الطبيعة.

[4] صحيح البخاري، حديث رقم ١٨٩٤: "الصيام جُنة"؛ وهي هنا وقاية للعقل من شبهات الإلحاد وضلالات المادية. بهذا نكون قد ربطنا الصيام بمواجهة الإلحاد فكرياً وعملياً.

الجمود هو توقف العقل عن التدبر، والرضا بالقوالب الجاهزة دون تمحيص، أما التقليد فهو التبعية العمياء لأراء الرجال أو الموروثات التي لم تستند إلى وحي أو برهان عقلي سليم. إن الجمود يحول الدين إلى "هيكل ميت" ويجعل العقل أسيراً للعادات والمألوفات، وهو ما حذر منه القرآن الكريم في ذم من قالوا: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ} [الزخرف: ٢٣].

2. الصيام كثرة على "المألوف".

يأتي الصيام كأعظم تمرين عملي لكسر "قيد العادة"؛ فمن جمد عقله على أن الأكل والشرب هما ضرورة حتمية في كل نهار، يأتي رمضان ليثبت له أن العقل المؤمن قادر على تغيير النمط والتمرد على العادة المستحكمة. إن الصيام يكسر "الجمود السلوكي" ليمهد الطريق لكسر "الجمود الفكري"؛ فمن استطاع تغيير موعد طعامه وشرابه ونومه لأجل الحق، فهو أقدر على تغيير أفكاره البالية والتحرر من تقليد الآباء والبيئة إذا كانت تصادم الحق والوحي [١].

3. الصيام والاجتهاد: إعمال العقل في المقاصد.

إن الصيام ليس مجرد "آلية صماء"، بل هو دعوة للاجتهاد في فهم مقاصد الشارع؛ فبدلاً من التقليد الجامد لصور العبادة، يدفع الصيام العبد للتفكير في "لماذا نجوع؟" و"ما هو أثر الصوم في الروح؟". هذا "التفكير" هو عدو الجمود الأول. إن الصيام يحرر العقل من التبعية للمادة ولأصنام البشر، ويجعل مرجعيته هي "النص" الحي و"العقل" المتدبر. وبذلك، يتحول الصائم من "مقلد جامد" إلى "عابد مجتهد" يبحث عن الحكمة في كل تشريع، ويستعيد دور "آدم الخليفة" الذي علمه الله الأسماء كلها، ومنحه السيادة بالعلم والوعي لا بالتبعية والتقليد [٢٢].

((رابعاً)) الصيام وجوهر التوحيد: تحرير العقل من "تأليه المادة"

وحجاب الأسباب

1. المادية وتأليه القوانين: الحجاب المعاصر

إنَّ أشدَّ القيود التي تُكبِّل عقل الإنسان المعاصر هي "الفلسفة المادية" التي جعلت من القوانين الفيزيائية "آلهة" تُعبد من دون الله، وصوّرت الكون كآلة صماء تعمل بخصائص ذاتية مستقرة. هذا الفهم المادي حجب العقل عن الخالق، وجعل الإنسان

[1] لسان العرب، مادة "جمد": الجمود هو اليبوسة وعدم الحركة، والصيام حركة دائبة وتجديد مستمر للإرادة تمنع العقل من اليبوسة والتحجر.

[2] مسئلتهم من مشروع "التقليد والاجتهاد"، حيث يمثل الصيام حالة وسطية تلتزم بالنص (الاجتهاد في فهمه) وتتحلل من قيد التقليد للأهواء والعادات.

[3] سورة محمد: آية ٢٤: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}؛ والصيام هو المفتاح الذي يفتح أقفال القلوب التي أغلقها الجمود.

بهذا نكون قد ربطنا الصيام بتحرير العقل من الجمود والتقليد.

يظن أنَّ الأسباب (كالشمس، والهواء، والطعام) هي التي تمنح الحياة والقوة بذاتها، فنشأ "إلحادٌ مستتر" يتمثل في الركون إلى الأسباب ونسيان مسببها [١].

2. الصيام كخرقٍ لـ "حجاب العادة".

يأتي الصيام ليقوم بعملية "تفكيك فكري" لهذا التآليه المادي؛ فحين يمتنع الصائم عن الطعام والشراب، هو لا يمارس حرماناً فحسب، بل يمارس "اعترافاً وجودياً" بأنَّ القوة والمدد ليسا كامنين في المادة (الطعام)، بل في "الأمر الإلهي" الذي أودع في المادة نفعها. الصيام يكسر "رتابة القوانين" في عقل المؤمن؛ ليدرك أنَّ الشبع والريَّ هما نتيجة لإرادة الله المستمرة، وليس ملكية خاصة لخصائص المادة. وبذلك، يتحرر العقل من "تآليه الأسباب" ليعلق قلبه بمسبب الأسباب وحده [٢].

3. نحو رؤية قرآنية للكون: القوانين كأمرٍ مستمر

في هذا المقام، يبرز صيامك كإعادة اعتبار للمنهج القرآني؛ فالنهار ليس مجرد ظاهرة فلكية ناتجة عن دوران الأرض، بل هو "آية مستقلة" وخلقٌ إلهي مقصود. والقوانين الفيزيائية ليست "صفات ذاتية" للمادة لا تتغير، بل هي "أمرٌ مستمر" من الله (Continuous Command)؛ فالله هو الذي "يمسك" السماوات والأرض أن تزولا. الصيام هو الحالة التي يتوقف فيها العبد عن استهلاك المادة ليتأمل في "أمر الله" المحيط بها؛ فيخرج العقل من سجن "المادية المبرراتية" إلى فضاء "التوحيد الخالص"، حيث لا مؤثر في الوجود إلا الله، ولا حقيقة للمادة إلا بكلمته [٢٣].

((خامساً)) الرسول ﷺ والقُدوة الحسنة في رمضان: مدرسة الزهد

والسيادة [الصفحة الأولى: الزمان هو الزمان.. ولكنَّ الإنسان غير الإنسان] إنَّ المتأمل في حال الأمة اليوم وهي تستقبل رمضان، يدرك بمرارة أنَّ معالم الشهر قد "وُسخت" وتغيرت تغيراً مشيناً؛ فبعد أن كان ميقاتاً لتصفية الروح، تحول إلى موسمٍ للهو واللعب، ومهرجانٍ للتفنن في الطعام والشراب. وإذا وضعنا واقعنا المعاصر في كفة، وحال رسول الله ﷺ وصحابته الكرام في الكفة الأخرى، لوجدنا أنَّ "الزمان هو الزمان"، لكنَّ "الإنسان غير الإنسان"؛ فالفرق ليس في الساعات والموافيت، بل في القلوب التي تعلقت بالدنيا فاستعبدت صيامها لمعدتها [١]. لقد كان المصطفى ﷺ وصحابته يخلعون الدنيا من رقابهم عند عتبة رمضان؛ فكان طعامهم أزهد، وثيابهم أخشنه، وقيامهم أطوله، إدراكاً منهم أنَّ صلاح أول هذه

[1] "لسان العرب، مادة "سبب": السبب هو ما يتوصل به إلى غيره، والمادية حوّلت "السبب" إلى "غاية"، فوقع العقل في أسر الملموس.

[2] سورة يس: آية ٨٢: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}؛ فالصيام يذكرنا بأنَّ "كُن" هي المحرك الحقيقي وليس الطعام.

[3] مسئلتهم من رؤيتنا الخاصة المحفوظة: "آية النهار كخلق مستقل والقوانين الفيزيائية كأمر مستمر من الله"؛ وهي الركيزة التي يحطم بها الصيام قيود الإلحاد الفلسفي.

الأمة كان بـ "الزهد واليقين"، وأنَّ هلاك آخرها سيكون بـ "البخل وطول الأمل" [٢].

لقد عاش النبي ﷺ حياة "العبد" الذي يأكل كما يأكل العبد ويجلس كما يجلس العبد؛ فما شبع من خبزٍ ولحمٍ قط إلا على "ضفف" (أي حين يجتمع القوم على الطعام)، وما رأى بيتاً مزخرفاً إلا أعرض عنه قائلاً: "إنه ليس لنبي أن يدخل بيتاً مزخرفاً" [٣]. كان "الأسودان" (التمر والماء) هما قوام عيشه، وربما مرت عليه الشهور الثلاثة وما أوقدت في بيوته نار، حتى قبضه الله إليه وما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين [٤]. لم يكن هذا فقراً اضطرارياً، بل كان "اختياراً وجودياً" للتحرر من أثقال الأرض؛ فكان يُلقى الطعام على الأرض تواضعاً، ويرفض "شراب اللوز" واصفاً إياه بأنه شراب المترفين [٥]. إنَّ النبي ﷺ كان يرى الدنيا كراكبٍ استظل تحت شجرة ثم راح وتركها، معتبراً أنَّ ما زاد عن "ظل بيت، وكسرة خبز، وثوب يوارى العورة" هو نعمٌ سيُسأل عنها العبد، فكيف بمن جعل رمضان موسماً لمضاعفة الترف والإسراف؟ [٦]

((فقه الإيثار وانكسار العبد:))

لقد سرى نور الزهد النبوي في قلوب الصحابة وآل البيت، فكان جوعهم في رمضان "محراباً" للقرب، لا حلمًا بالشعب. وفي ذلك تُشرق سيرة الإمام علي والسيدة فاطمة الزهراء رضوان الله عليهما، حين صاما ثلاثة أيام إيفاءً بنذر، فكان طعامهما في اليوم الأول لمسكين، وفي الثاني ليتيم، وفي الثالث لأسير، فباتوا طاوين ولم يذوقوا إلا الماء؛ ليخلد القرآن ذكراهم: {وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا} [١]. إنَّ هذا "الجوع الاختياري" هو الذي يصنع الإنسان الذي لا تستعبده الحاجة؛ فابن عباس رضي الله عنهما يروي أنَّ النبي ﷺ كان يبيت الليالي المتتابعة طاوياً وأهله لا يجدون عشاءً، بل كان الصحابة من شدة الجوع يعصبون على بطونهم الحجر ليقوموا صلبهم، وكشف النبي ﷺ يوماً عن بطنه فإذا هو قد عصب حجرين من شدة السغب [٢]

إنَّ العبقرية النبوية حذرت من أن يتحول الإنسان إلى "عبدٍ لبطنه"، معتبرة أنَّ "أهل الشعب في الدنيا هم أهل الجوع يوم القيامة"؛ لأنَّ التوسع في اللذات يورث الغفلة

[1] لسان العرب، مادة "وسخ": والوسخ هنا استعارة للكنورات المادية التي لطخت جوهر العبادة وجردتها من معناها الروحي.

[2] شعب الإيمان للبيهقي، حديث رقم ١٠٠٢٢: "صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، وبهلك آخرها بالبخل والأمل".

[3] سنن أبي داود، حديث رقم ٣٧٤٨؛ وهو يوضح كراهية النبي ﷺ لمظاهر الترف التي تصرف القلب عن الآخرة.

[4] صحيح البخاري، حديث رقم ٥٤١٦: "ما شبع آل محمد صلى الله عليه وسلم من خبز شعير يومين متتابعين حتى قُبِضَ".

[5] مستلهم من الآثار الواردة في زهد النبي ﷺ وترفعه عن شراب المترفين وطعامهم المعقد.

[6] سنن الترمذي، حديث رقم ٢٣٧٧: "ما لي وللدنيا! إنما مثلي ومثلى الدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها".

وقسوة القلب [٣]. وقد وضع النبي ﷺ القاعدة الطبية والتربوية الخالدة: "ما ملأ ابن آدم وعاءَ شراً من بطنه"، مشيراً إلى أن القوة ليست في "حشو المعدة" بل في "لقيماتٍ يُقمن الصلب" [٤]. وحين استضاف ﷺ كافراً فشرب لبن سبع شياه، ثم أسلم في الغد فلم يستتمَّ لبن شاة واحدة، أعلنها ﷺ مدوية: "المؤمن يشرب في معي واحد، والكافر يشرب في سبعة أمعاء" [٥]. إنَّه إعلانٌ لسيادة الروح التي تكتفي بالقليل لتتطلق في فضاء العبادة، بخلاف النفس المادية التي لا تزداد بالشبع إلا ثقلًا وتردياً. فالطعام —مهما طاب— مآله معروف، وقد ضرب الله ما يخرج من ابن آدم مثلاً للدنيا في زوالها، فكيف يبيع العبد ربيع عمره في رمضان من أجل مائدةٍ تنتهي بانتهاؤها للذة؟ [٢٠٦]

((خامساً)) الرسول ﷺ والقُدوة الحسنة في رمضان.. [الصفحة الثالثة:

شرار الأمة وفقه الاعتدال]

إنَّ أخوف ما خافه النبي ﷺ على أمته هو "طغيان التمتع" الذي يسلبها روح القوة والانتصار؛ لذا جاء التحذير النبوي الشديد واصفاً من يتفرغون لتلوين الطعام واللباس وتشدق الكلام بأنهم "شرار أمتي" [١]. إنَّ تلون الموائد في رمضان، والتفنن في ألوان الأشربة فوق حد الحاجة، ليس مجرد سرفٍ مادي، بل هو وسارٌ من "وسم الشر" في جبين الأمة؛ لأنه يعكس ارتداداً عن فلسفة الصيام التي تهدف إلى كسر الشراهة لا إلى تغيير مواعيدها مع مضاعفة كمياتها. فإذا شبعَت النفس من الحلال طمعت في الحرام، أما إذا قنعت بالقليل فقد تحررت من أثقل قيودها [٢] لقد كان السلف يدركون أنَّ "الشبع أول بدعة حدثت بعد رسول الله ﷺ"، كما ذكرت السيدة عائشة؛ لأنَّ الشبع يورث الكسل عن القيام، ويفتح مسالك الشيطان [٣]. وحين التقى يحيى عليه السلام بإبليس، أخبره اللعين أنَّ حيلته الكبرى هي إغراء العبد بالطعام لينام عن ذكر الله، فألى يحيى على نفسه ألا يشبع أبداً، وآلى إبليس ألا ينصح مؤمناً بعدها [٤]. إنَّ ما نراه اليوم من إنفاقٍ على الطعام في شهر رمضان يعادل ما يُنفق في عامٍ كامل، هو قلبٌ لجوهر العبادة؛ فالصيام قيدٌ للشهوة وليس "بوفيه" مفتوحاً للاستهلاك. إنَّ الإسلام لا يدعو للبخل أو الحرمان المذموم، بل

[1] سورة الإنسان: الآية ٨؛ وهي أسمى درجات التحرر من سطوة الشهوة لصالح قيم الإيثار والعبودية.

[2] سنن الترمذي، حديث رقم ٢٣٦٦؛ والطَيُّ هو المبيت على الجوع دون طعام.

[3] سنن ابن ماجه، حديث رقم ٣٣٥١؛ وفيه تنبيه إلى أنَّ الشبع الزائد في الدنيا يُنقص من نصيب العبد في الآخرة أو يُعرضه للحساب الطويل.

[4] سنن الترمذي، حديث رقم ٢٣٨٠؛ وهو أصلٌ في الطب الوقائي وفي تهذيب النفس البشرية.

[5] صحيح مسلم، حديث رقم ٢٠٦٣؛ والمراد أنَّ نور الإيمان يبارك في القليل ويقمع شراهة النفس المادية.

[6] مستلهم من حديث النبي ﷺ: "إن الله تعالى ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلاً للدنيا" [رواه الطبراني]؛ أي أن جمال الطعام في بدايته ومنظره، وزواله في نهايته، كحال الدنيا تماماً.

لقوله تعالى: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا} [٥]. إِنَّ العودة للقدوة النبوية تقتضي أن يكون رمضان شهراً لاستعادة "الإنسان" سيادته على "جسمه"، وتدريباً على الاكتفاء بالقوت، ليتفرغ العقل لتحرير نفسه من الجمود، والقلب للاتصال بالخالق؛ فمن لم يستطع كسر صنم "المعدة" في رمضان، كيف يرجو كسر أصنام الاستبداد والإلحاد في واقع حياته؟ [٦] ٢٦

((سادساً)) روحانيات رمضان: معراج الروح وانكسار المادية

((تغليب الروح وتشبه بـ "الملائكية:"))

نلتقي على مائدة الصيام لنلتف حول "روحانيات رمضان"؛ ذلك الشهر المليء بالأسرار التي تمكن الصائم من تغليب روحه على مادته، والارتفاع فوق قيود "الحيوانية" ليتشبه في حاله بالملائكة الكرام. إِنَّ الإنسان مزيجٌ من قبضة طين ونفخة روح؛ المادة غذاؤها الطعام والشراب، والروح غذاؤها الذكر والاستغفار والصلة بالله [١]. فإذا أقبل رمضان، تخلّص العبد من كثافة الجسد ليقترّب من صفات الذين "لا يفترون عن ذكر الله ولا يعصون الله ما أمرهم"، فكل عبادة مظهر؛ ومظهر الصيام هو "الرائحة الإيمانية" (خلاف فم الصائم) التي هي عند الله أطيب من ريح المسك، إيداناً ببدء "الكرنفال الروحاني" الذي تنزل فيه الرحمة ويُحط فيه الخطأ [٢]

لقد أخبرنا المصطفى ﷺ أن رمضان هو "سيد الشهور" وأفضلها، ولو يعلم العباد حقيقة ما فيه لتمنت الأمة أن تكون السنة كلها رمضان. وكما يذكر ابن القيم، فإن من ذاق أدنى تجربة يعلم كيف يستغني الجسد بغذاء الروح عن كثير من الغذاء الحيواني، ولا سيما حين تقرأ عين المحب بمحبوبه، وتصل إليه ألطاف الرضا في كل وقت [٣]. هذا الشوق الروحي هو الذي كان يجعل النبي ﷺ يواصل الصيام

[1] ٢٦ المعجم الكبير للطبراني: "سيكون رجال من أمتي يأكلون ألوان الطعام... أولئك شرار أمتي"، والشر هنا نابع من تقديم الشهوة على الرسالة.

[2] مسئلتهم من قاعدة "النفس إن شبعت طمعت"، فالجوع هو لحام النفس الأمانة بالسوء التي تناولتها في "المحور الثاني".

[3] يروى عن عائشة رضي الله عنها: "أول بدعة حدثت بعد رسول الله الشبع، فإن القوم لما شبعوا بطونهم جمحت بهم نفوسهم إلى الدنيا".

[4] أثر مشهور في كتب الزهد (كحلية الأولياء)، يصور الصراع الوجودي بين "اليقظة الروحية" و"الغفلة المادية".

[5] سورة الأعراف: آية ٣١؛ وهي القاعدة القرآنية الذهبية التي تحكم ميزان الاستهلاك البشري.

[6] مسئلتهم من ربطك بين "تحرير العقل" و"قيود المادة": فالاعتدال في الطعام هو أولى خطوات التحرر الفكري من تأليه المادة الذي يغذي الإلحاد.

بهذا نكون قد أتممنا الفصل الخامس بصفحاته الثلاث.

تذكير بالمعلومات المحفوظة: لقد انتهينا من عرض "القدوة النبوية في الزهد" وربطناها بمشروعك في تحرير العقل.

ويقول: "إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني"، فهو طعامٌ ليس من جنس طعامنا، بل هو فيض الوجدان الذي يغني عن كثافة المادة. وفي هذه الأجواء، ينظر الله إلى "تنافسكم" ويباهي بكم الملائكة، فالحرمان الحقيقي في هذا الشهر ليس حرمان البطن، بل هو حرمان الشقي الذي تُحجب عنه رحمة الله في مِظانٍ وجودها [٤] إنّ رمضان يعيد ترتيب "الأولويات الوجودية"؛ فيضع الروح في مكانها الأصيل كقائد للجسد، لا مجرد تابع لشهواته. وعندما تصفو الروح، تنفتح "أبواب السماء" لاستقبال الأعمال، وتتحوّل أنفاس الصائم إلى تسبيح، ونومه إلى عبادة، في حالة استغراقٍ كامل في القداسة تطهر العقل من "الجمود المادي" والتعلق بالبشر، لتضعه في مقام "العبودية الحقة" التي هي عين الحرية [٥] ٢٧

((الصفحة الثالثة: فقه القيام وأنوار السحر))

من أبهى روحانيات رمضان صلاة "القيام" والناس نيام؛ حيث يرتفع العبد فوق بهيميته وحيوانيته ليناجي ربه في جوف الليل. إنّ القيام هو "دأب الصالحين"، وقربةٌ تُكفر الذنوب وتطرد الداء عن الجسد [١]. وفي رمضان، يتحوّل الليل من زمنٍ للهو أو النوم إلى "ميدانٍ للسبق"؛ فالشيطان يعقد على ناصية النائم ثلاث عقد ليثقله عن الطاعة، فإذا استيقظ الصائم وذكر الله انحلت عقدة، وإذا توضأ انحلت الثانية، فإذا صلى انحلت الثالثة، فأصبح طيب النفس نشيطاً، وإلا أصبح خبيث النفس كسلاناً [٢].

لقد حذرنا النبي ﷺ من "بول الشيطان" في أذن من ينام الليل كله حتى الصباح، وبشرنا بأنّ "ركعتين في جوف الليل خير من الدنيا وما فيها" [٣]. إنّ صلاة التراويح والقيام هي نُور البيت في السماء؛ فكما ينظر أهل الدنيا إلى نجوم السماء، تنظر الملائكة إلى بيوت القائمين التي تضيء بنور الطاعة [٤]. ويأتي التوجيه النبوي لـ "أبا ذر" ليرسم لنا خريطة الطريق: "صم يوماً شديداً حر ليوم النشور، وصل ركعتين في ظلمة الليل لوحشة القبور"؛ فالقيام ليس مجرد حركات، بل هو زادٌ لسفر الآخرة الطويل [٥].

إنّ العقل المتحرر في رمضان يدرك أنّ "لذة المناجاة" أعظم من "لذة النوم"؛ ولهذا كان السلف يجدون في القيام أنسهم، حتى قال يحيى عليه السلام بعدما نام عن ورده

[1] ٢٧ لسان العرب، مادة "روح": الروح هي ما به حياة الجسد، ورمضان هو ربيع الروح الذي تُسترد فيه قوتها بعد هيمنة المادة طوال العام.

[2] صحيح البخاري، حديث رقم ١٨٩٤: "لخوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك".

[3] ابن القيم الجوزية، "زاد المعاد": في حديثه عن أسرار الصوم وغذاء الروح الذي يستغني به المحب عن طعام الأجساد.

[4] المعجم الكبير للطبراني: "أتاكم رمضان شهر بركة... فانظروا الله من أنفسكم خيراً".

[5] مسئلتهم من رؤيتنا في "تحرير العقل": أنّ الارتقاء عن الحيوانية هو أول خطوة في تحرير العقل من "قيود المادية" والإلحاد.

ليلة: "يا رب، أوجدت داراً خيراً من داري أم جواراً خيراً من جواري؟". إنَّ روحانيات القيام تسمو بالإنسان ليخرج من ضيق المادية إلى سعة اليقين، فمن قام ليله وهو يريد رضا ربه، ألبسه الله من نوره وكتبه في زمرة الصادقين [٦].^{٢٨}

((شهر القرآن ومعراج التدبر))

إنَّ رمضان هو "شهر القرآن" بامتياز، فالصلة بينهما صلة وجود؛ إذ اختار الله هذا الشهر ميقاناً لنزول أعظم كتبه: {شَهْرُ رَمَادَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ} [١]. وفي رمضان، يلتقي "الصيام" (وهو حبس النفس عن المادة) مع "القرآن" (وهو إطلاق الروح في معاني الوحي)، ليشكلا معاً "جناحي الشفاعة"؛ فيقول الصيام: "أي رب منعه الطعام والشهوة فشفعني فيه"، ويقول القرآن: "منعه النوم بالليل فشفعني فيه"، فيشفعان [٢].

إنَّ روحانية القرآن في رمضان لا تكتمل بمجرد سرد الحروف، بل بـ "التدبر" الذي يكسر أقفال القلوب المتحجرة؛ فتعلم آية واحدة وفهم مراميها خيرٌ من صلاة مائة ركعة بلا فقه [٣]. إنَّ القرآن هو الشفيع الذي لا يعلوه شفيع، وهو الميزان الذي تعظم به قيمة المرء؛ فمن تعلمه عظمت قيمته، ومن عمل به رُفِع شأنه. لذا كان الوحي ينزل بـ "اقرأ" ليكون العلم والوعي هما أساس العبودية [٤]. وفي منازل الجنة، يُقال لقارئ القرآن: "اقرأ وارتي ورتل كما كنت ترتل في الدنيا"، لتكون منزلته عند آخر آية يتدبرها ويعمل بها [٥].

إنَّ القراءة في رمضان هي "رحلة ارتقاء"؛ فالحرف بحسنة، والحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، ونور القرآن يضيء للسموات كما تضيء الكواكب للأرض. وحين يمتزج تدبر القرآن بجوع الصيام، تصفو البصيرة ليدرك العقل أنَّ القرآن ليس نصاً تاريخياً، بل هو "منهج حياة" يحرر الإنسان من أغلال الجمود والتقليد، ويفتح له آفاقاً كونية يرى فيها عظمة الخالق في كل آية وكل قانون [٦].^{٢٩}

[1] سنن الترمذي، حديث رقم ٣٥٤٩: "عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم.. ومطردة للداء عن الجسد".
[2] صحيح البخاري، حديث رقم ١١٤٢؛ وهو يصور الصراع الوجودي بين "الإرادة الإيمانية" و"الإنقال الشيطاني".
[3] صحيح البخاري، حديث رقم ٣٢٧٠؛ وفي وصف من ينام عن صلاة الفجر والقيام.
[4] مستلهم من وصية النبي ﷺ لأبي هريرة: "صلِّ في زوايا بيتك يكن نور بيتك في السماء كنور الكواكب".
[5] مستلهم من وصية النبي ﷺ لأبي ذر الغفاري في إعداد العدة لسفر الآخرة.
[6] سورة السجدة: الآية ١٦: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا}؛ وهي الحالة الروحية الأسمى للصائم القائم.
[1] سورة البقرة: الآية ١٨٥؛ وهي النص المؤسس للعلاقة الوجودية بين الشهر والكتاب.
[2] مسند الإمام أحمد، حديث رقم ٦٦٢٦؛ وهو يصور الصيام والقرآن كرفيقين لا ينفصلان في نفع المؤمن.
[3] سنن ابن ماجه، حديث رقم ٢١٩: "لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي مائة ركعة".
[4] سورة ص: الآية ٢٩: {كَتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ}؛ فالتدبر هو الغاية القصوى من الإنزال.
[5] سنن الترمذي، حديث رقم ٢٩١٤؛ وفيه إشارة إلى أنَّ الدرجات في الآخرة تُنال بمدى "ترتيل" الروح لمعاني الوحي.
[6] "تحرير العقل من الجمود": فالقرآن هو الأداة الأولى لتحطيم موروثات التقليد الضالة وبناء عقلية الاجتهاد والتدبر.

((فقه الإطعام ورباط التراحم))

تكتمل روحانيات رمضان حين تتحول المشاعر الإيمانية إلى "عطاءٍ ملموس"؛ فإطعام الطعام هو أصلٌ من أصول الشريعة، وبدونه تظلُّ دعوى الإيمان ناقصة؛ فليس بمؤمن "من بات شعبان وجاره إلى جانبه جائع وهو يعلم" [١]. وفي رمضان، يتجلى هذا "التحام الروحي" في أبهى صورهِ عبر "إفطار الصائمين"؛ إذ جعل النبي ﷺ لمن فطر صائماً مثل أجره، ولو على مذقة لبن أو شربة ماء، ليعلمنا أنَّ القيمة ليست في كثرة الطعام، بل في "روح الجود" والانتصار على شح النفس [٢] إنَّ "فقه الإطعام" في رمضان يتوزع على أربعة أركان تكافلية: أولها إفطار الصائمين طواعية، وثانيها فدية العاجز عن الصيام (كالشيخ الكبير والمريض)، وثالثها كفارة الإفطار عمداً، ورابعها "زكاة الفطر" التي فرضها النبي ﷺ طهرةً للصائمين من اللغو وطعمةً للمساكين [٣]. وهذه الزكاة هي "ضريبة الرؤوس" التي لا يكتمل الصيام إلا بها؛ ليرتفع الصوم المعلق بين السماء والأرض إلى ربه، محققاً وحدة الأمة حيث يزكي الغني نفسه ويواسي الفقير، فيردُّ الله على الفقير أكثر مما أعطى [٤]

إنَّ رمضان يعيد صياغة الأمة لتكون كـ "الجسد الواحد"؛ فالصائم الذي ذاق مرارة الجوع، هو أسرع الناس تلبيةً لحاجة أخيه، وأقربهم لفهم معنى "التواد والتراحم" [٥]. وكما كان ابن عباس يخرج من اعتكافه لقضاء حاجة رجلٍ، معتبراً أنَّ السعي في حاجة الأخ خيرٌ من اعتكاف عشر سنين؛ فإنَّ روحانيات رمضان الحقيقية هي التي تكسر "جمود القلوب" وتجعلها لينّة مع المؤمنين. إنَّ التكافل في رمضان ليس مجرد صدقة، بل هو "انتصار اجتماعي" على الأنانية، وإثباتٌ عملي بأنَّ المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وبذلك تكون الأمة في رمضان "شاهدة" بحق، تعيش بروح السماء على أرض الواقع [٦]٣٠

((سابعاً)) الوسطية والاعتدال في الإسلام: الصراط المستقيم بين فكي التطرف:

[1] المعجم الكبير للطبراني، حديث رقم ١٢٧٣١؛ وهو أصلٌ في التكافل الاجتماعي الإسلامي.
[2] سنن الترمذي، حديث رقم ٨٠٧: "من فطر صائماً كان له مثل أجره"؛ وهو تحفيظٌ لنشر المودة وبسط اليد بالخير.
[3] سنن أبي داود، حديث رقم ١٦٠٩: "فرض رسول الله زكاة الفطر طهرة للصائمين وطعمة للمساكين."
[4] مسئلتهم من الآثار الواردة في أنَّ الصوم معلق حتى تؤدي زكاة الفطر، لبيان أنَّ تمام العبادة مرتبط بنفع الناس.
[5] صحيح البخاري، حديث رقم ٦٠١١: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد."
[6] مسئلتهم من مشروعي: "تحرير العقل من الاستبداد والجمود"؛ فالتكافل هو تحررٌ من استبداد "الأناني" وجمود "المادية" التي تمنع الإنسان من الإحساس بالأمم الآخرين.

((ماهية التطرف.. انحراف "عن" الدين لا "في" الدين))

إنَّ المتأمل في واقع الأمة اليوم يدرك أنَّ "التطرف" أضحى مرضاً لادينيّاً فتاكاً، تخلقه ظروفٌ نفسية واجتماعية واقتصادية وسياسية معقدة، ثم يظهر بؤسه على السلوك الديني الشكلي والظاهري. والحقُّ الذي لا مرأى فيه أنَّه "لا تطرف في الدين"، إنما هو "تطرفٌ عن الدين"؛ فلم يثبت تاريخياً أنَّ شخصاً خلا بكتاب الله وسنة رسوله، فخرج من خلوته متطرفاً أو إرهابياً [١]. إنَّ التطرف هو "ميلٌ" عن الصراط المستقيم، فكلُّ شيءٍ يتجاوز فيه الإنسان حدود الاعتدال فقد تطرف عنه؛ سواء كان تطرفاً في العواطف، أو في السلوكيات، أو في حب المال والسلطان، أو حتى في حب الظهور.

إنَّ التطرف هو أحد طرفي الفضيلة؛ فالفضيلة وسطٌ بين رذيلتين (التسيب أو التزمت). وإنَّ أخطر مسببات هذا الانحراف هو "الإحساس بالقهر والكبت"؛ فالقهر والاحباط هما المنتج الوحيد للتطرف، إذ يخلقان أجيالاً ينعدم عندها الولاء ويضعف لديها الانتماء. إنَّ تجاهل إحساس الناس بالظلم قد أشعل براكين تحت الرماد؛ فالنفس البشرية إذا ضُيق عليها، بحثت في ثنايا النصوص عما تداوي به جراحها، فتقرأ النص بـ "عين المكلوم" لا بـ "عين الفقيه". لذا، فإنَّ المنهج الإسلامي هو صمام الأمان الذي يرسم "الصراط المستقيم" (اهدنا الصراط المستقيم)، وهو الطريق الواضح الذي لا ميل فيه للمادية الجافة (المغضوب عليهم) ولا للروحانية الفارغة المبتدعة (الضالين) [٢]. إنَّ هذا الدين متين، والوسطية فيه هي جوهر الشهادة على الناس: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ} [٣].^{٣١}

((المنهج النبوي في تأسيس الشخصية))

لقد بزغ فجر النبوة على ظلمات الجاهلية؛ حيث كانت شبه جزيرة العرب تموج بمسوخٍ وأشباحٍ لا ملامح لها سوى الكذب، والغلظة، والعنصرية المقيتة. فوضع النبي ﷺ يده في أحشائهم ليخلق جيلاً فريداً، مستنداً في ذلك إلى "الأساس العقدي" أولاً؛ فالعقيدة هي الرابطة الوثيقة التي تُربط في القلب فلا تنحل، وبدونها يصبح الإنسان بلا مبدأ، يسهل بيعه والغدر به. ظل النبي ﷺ يغرس هذا الولاء والوفاء

[1] "لسان العرب، مادة "طرف": الطرف هو الناحية، والتطرف هو الوقوف على الحافة بعيداً عن المركز (الوسط)، وهو ما يخرج المرء عن جوهر الاستقامة.

[2] سورة الفاتحة: الآية ٧؛ وهي القاعدة التي تضبط ميزان الاعتدال بين غلو المادة وضلال الروحانية المبتدعة.

[3] سورة البقرة: الآية ١٤٣؛ والوسطية هنا تعني الخيرية، والعدالة، والتوازن بين متطلبات الروح والجسد.

[4]: "التطرف مرض لاديني تخلقه الظروف النفسية والسياسية"، وهو تشخيص دقيق يحرر الدين من تهمة الإرهاب.

ثلاثة عشر عاماً في مكة، حتى رأينا بلالاً يثبت على رمضاء مكة كأنه الطود الأشم، ورأينا آل ياسر يواجهون الموت بيقين الجنة؛ فالعقيدة هي التي تمنح الشخصية "ثبات الاتجاه" وتمنعها من التذبذب أو التطرف [١]

ثم جاء الأساس الثاني وهو "تعويد الطاعة"؛ فالقدرة على تثبيت المبادئ والاستمرار على الطاعات (أدومها وإن قل) هي التي تصنع الشاب الذي ينشأ في طاعة الله، والرجل الذي يعلق قلبه بالمساجد، فتكون حياته سلسلة من الانضباط النفسي لا نزوات الانفعال [٢]. أما الركيزة الثالثة، فهي "التوسط بين المادية والرهانية"؛ فبين مادية اليهود المفرطة (أرنا الله جهرة) وروحانية النصارى المبتدعة، جاء الإسلام وسطاً يُقيم الصلاة ليلة المعراج ويفرض الصيام بعد الهجرة، ليوازن بين حاجات الأرض وأشواق السماء. إنَّ الشخصية التي بناها المصطفى ﷺ هي شخصية "لا تمل" لأنها تعمل بالرفق (خذوا من الدين ما تطيقون)، وتجمع بين عمارة الدنيا وطلب الآخرة (ولا تنس نصيبك من الدنيا)، فالتطرف في الدين ممتنع، لأن الدين ذاته هو ميزان الاعتدال الذي يحارب الانحلال والتشدد على حد سواء [٣٢٣]

((مكارم الأخلاق وروح الإيجابية))

لقد اكتمل بناء الشخصية المسلمة بالأساس الرابع وهو "الأخلاق والقيم والمثل"؛ إذ حصر النبي ﷺ غاية بعثته في "تتميم مكارم الأخلاق"، جاعلاً أقرب الناس منه مجلساً يوم القيامة أحاسنهم أخلاقاً. إنَّ الأخلاق هي الحصن الذي يحمي الأمة من التآكل؛ فسوء الأخلاق جراثيم تفري في بدن الأمم حتى ترديها، والوسطية هنا تظهر في "الرفق واللين والتواضع" دون ذلة، وفي "الصدق والأمانة" دون مواربة [١].

أما الأساس الخامس فهو "بث روح الإيجابية" ونزع السلبية التي هي مرض العصور؛ فالإسلام يرفض التقوقع على الذات، ويجعل "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" هو ميزة هذه الأمة وعلامة خيريتها (كنتم خير أمة أخرجت للناس). إنَّ السلبية المقيتة التي تجعل الناس يزهدون في الشأن العام هي تردٍ ورجعية، بينما زرع النبي ﷺ في أصحابه روح "المسارعة في الخيرات"، حتى رأينا الصديق

[1] "لسان العرب، مادة "عقد": العقيدة هي ما جزم به القلب وعقد عليه، ومن شأنها أن تمنع النفس من الاضطراب والزيغ يميناً أو يساراً.

[2] صحيح البخاري، حديث رقم ٦٦٠: "سبعة يظلهم الله في ظله.. وشاب نشأ في عبادة الله"؛ والنشوء هنا هو تربية الشخصية على الاستقامة الدائمة.

[3] سورة القصص: آية ٧٧: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا}؛ وهي القاعدة الذهبية التي تمنع الرهبانية المبتدعة والمادية الجاحدة.

[4] سنن ابن ماجه، حديث رقم ٤٢٤١: "إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه"؛ وهو أصل في محاربة التنطع والتشدد.

ينافس الفاروق في خدمة عجز عمية، ورأينا المسلم يعتني بحلف الفضول وينصر المظلوم [٢].

ويأتي الأساس السادس ليتوج هذه العملية بـ "التربية بين الشدة واللين"؛ فلا هي رفاهية مفرطة تثبت أجيالاً هشة لا تتحمل المسؤولية، ولا هي قسوة تحطم النفوس. لقد علمنا المصطفى ﷺ أن "عباد الله ليسوا بالمترفين"، وأمرنا بـ "الاخشوشان" لأنَّ النعمة لا تدوم. إنَّ التربية الهشة التي نراها اليوم في شباب لا يرفعون رأساً ولا يحملون همّاً، هي نتاج الانحراف عن المنهج النبوي الذي ربي الرجال على "بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه" [٣]. فالوسطية في التربية تعني ممارسة الرياضة لعبادة، والسعي في الأرض كجهاد، والجمع بين "عزة المؤمن" و"لين الجانب"، وبذلك استطاع المنهج الإسلامي أن يستوعب طاقات البشر ويهذبها، ويصنع هوية جامعة تجمع بين قوة الذات وسماحة المنهج [٤٣٣].

((تجليات الوسطية في العقيدة والعبادة))

إنَّ المتتبع لمنهاج الشرع يجد أنَّ الله تعالى قد تدرج بالبشرية نحو الأعلى، حتى اكتملت الهداية بأمة الوسط. ووسطية هذه الأمة تتجلى في العقيدة بكونها "قمة التوحيد" الخالص الذي لا يخالطه شركٌ ولا رياء؛ فهي ليست مادية جافة تنكر الغيب، ولا هي "رومانسية فارغة" تبتدع الرهبانية وتعزل الحياة. إنها وسطية بين المباني والمعاني، تعترف بالعقل وتكرمه لكنها لا تألهه، وتؤمن بالروح لكنها لا تهمل الجسد [١].

وفي العبادات، يظهر التيسير ورفع الحرج كأصل أصيل؛ فالتكليف في الإسلام "وسعي" لا يجاوز طاقة الإنسان: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا}. فالاعتدال هنا هو الإتيان بما استطاع العبد من الأمر والانتهاه عما نهى عنه الشرع. لذا، فإنَّ "التنطع" والتشدد في العبادات ليس من البر؛ فمن صام صوماً يضره في سفره، أو قام ليله كله بلا نوم، أو اعتزل النساء، فقد رغب عن سنة النبي ﷺ الذي قال: "أصوم وأفطر، وأنام وأقوم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني" [٢]. أما في المعاملات، فالوسطية هي تحري الحلال والسموحة في البيع والشراء والاقتضاء، والوقوف عند حدود "القسط" والعدل حتى مع الخصوم؛ ليكون التعايش

[1] موطأ الإمام مالك، حديث رقم ١٦١٤: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"؛ وهو تصريح بأنَّ الأخلاق هي الثمرة النهائية للدين.
[2] سورة آل عمران: ١١٠: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ}؛ وهي دعوة صريحة للإيجابية المجتمعية.

[3] سنن الترمذي، حديث رقم ٢٣٨٠؛ وهو أصل في تهذيب الجسد ليكون خادماً للروح لا سيداً عليها.
[4] مسند الإمام أحمد، حديث رقم ١٦٠٣٣: "اخشوشوا فإن النعمة لا تدوم"؛ وهو منهج وقائي يحمي الإنسان من الترهل والضعف أمام المتغيرات.

السلمي وتقبل الآخر هو المظلة التي يستظل بها الجميع [٣]. إنَّ الوسطية في الإسلام هي "أعلى درجات الجنة" (الفردوس الأعلى)، فمن حققها في دنياه بأن كان عدلاً في حكمه وشهادته وقوله، نال تلك المنزلة الرفيعة. إنها ليست حالة من الضعف أو "الميوعة"، بل هي "انضباطٌ عقلائي" يراعي أمزجة وطبائع الناس، ويقبل الفرحة كما يتقبل الطرح، ويجعل من الدين متيناً يُوغل فيه برفق، بعيداً عن صخب المتشددين وجفاء المفرطين [٤].^{٣٤}

((خماسيات الهوية والسيادة:))

إنَّ "الهوية" هي مجموعة الصفات المميزة لامةٍ ما، ولهويتنا الإسلامية خمسُ (خماسيات) من الصفات التي تجعلنا أمةً متفردة بين الأمم. الخماسية الأولى تكمن في: (الوسطية والاعتدال، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الإيمان بجميع الرسل، العلم المقترن بالإيمان، والاجتماع على الجمعة والجماعة مع حفظ الله لشريعتنا وكتابنا). هذه الركائز هي التي تصهر الأمة في بوتقة واحدة؛ فلا فرق فيها بين من نطق العربية أو العبرية أو الإنجليزية، ولا فضل فيها لأبيض على أسود أو أحمر، وسواء سكنوا الشرق أو الغرب، أو كانوا أغلبية أو أقلية، فالهوية "عقدية" وليست "عرقية" [١].

ومع هذا الشمول العالمي، تبرز الخماسية الثانية التي تؤكد على (أهمية اللغة العربية لغة القرآن، وأفضلية العرب كأرومة للنبوّة، وفرضية الوحدة والاجتماع، وقُدسية البقاع الشريفة من مكة والمدينة والقدس وطور سيناء، وكرامة أخلاق العروبة من نجدة وشهامة وإنصاف للمظلومين). إنَّ الهوية الإسلامية ترفض "المسالب المقيتة" من عنصرية وعصبية وتفاخر بالأنساب؛ لأنها "جاهلية" تمزق نسيج الأمة. وبدلاً من ذلك، تنشر خماسية القيم التي تحت على (هداية جميع الخلق، وحب الخير للغير، وإعلاء الحق، ونشر السلام والإخاء) [٢].

إنَّ الحفاظ على هذه الهوية هو السبيل الوحيد للتحرر من التبعية المهينة؛ فمن العار أن نأكل فضلات غيرنا ونلبس خليعهم ونتبع اقتصادياتهم بينما نمتلك في أمتنا كل أسباب الريادة من موقعٍ ومناخٍ وثرواتٍ وهدايةٍ سماوية. إنَّ ضياع الهوية يبدأ من القعود عن العلم والعمل وترك الأمر بالمعروف، مما يجعلنا نتمرغ على أعتاب

[1] سورة البينة: آية ٥: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ}؛ والحنيفية هي الميل عن الشرك إلى التوحيد الخالص، وهو جوهر الوسطية العقدية.

[2] صحيح البخاري، حديث رقم ٥٠٦٣؛ وهو أصل في رد كل زيادة في التبعد تخرج بصاحبها عن هدي النبوة.

[3] سورة المائدة: آية ٨: {وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْلَمُوا اعْلَمُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ}؛ والعدل مع الخصوم هو ذروة سنام الوسطية في المعاملات.

[4] لسان العرب، مادة "وسط": الوسط هو العدل والفضل، فمن حقق الوسطية فقد حاز الفضيلة والعدالة في آن واحد.

سياساتهم وإعلامهم. لذا، فإنَّ العودة للوسطية والاعتزاز بالهوية هما طوق النجاة؛ لنكون "شهداء على الناس" بعدل وبصيرة، لا تابعين بجمودٍ وضياح [٣].^{٣٥}

((متانة الدين وفقه الرفق))

إنَّ هذا الدين "متين"، ومتانته تكمن في قوته الذاتية على امتصاص الصدمات والتعايش مع الصراعات عبر العصور؛ فقد انصهرت فيه أعراق العرب والعجم، وابتلع الممالك والبلاد بمرونةٍ عجيبة، محققاً النصر الدائم لدعوة الله حتى في أحلك الظروف. لقد انتصر الإسلام بقلّة العدد في بدر، وانتصر حين خولف الأمر في أحد، بل وانتصر بلا جيش حين أناخ رقاب التتار الذين قهروا البلاد فاعتنقوا دين من قهروهم [١]. هذه المتانة تعني أنَّ الدين مكتملٌ (اليوم أكملت لكم دينكم) وصالحٌ لكل زمان ومكان، يناسب البادية والحاضرة، والماضي والمستقبل، بعباداته ومعاملاته وسياسته.

لذا جاء التوجيه النبوي الحكيم: "فأوغل فيه برفق"؛ والولوغ هو المماساة والاحتكاك السلس بلا عصبية ولا شدة. إنَّ الرفق هو "روح الوسطية"، بينما التشدد هو "سياسة التشنج" التي تُهلك الظهر ولا تقطع الطريق؛ فالمنبثُّ (وهو المسرع الذي أجهد دابته حتى هلك) لا ظهراً أبقي ولا أرضاً قطع [٢]. ومن صور هذا التشدد المذموم الذي يخرج عن فقه الرفق: الوصال في الصيام، أو قيام الليل كله بلا نوم، أو كثرة الجدل الذي هو "مرض الأمم المنهارة"، أو الانغلاق على الذات ومحاربة الحداثة ووسائل العصر بدلاً من تهذيبها واستيعابها [٣].

إنَّ متانة الدين تقتضي أن نخضع كشعوب وأنظمة، أفراداً وجماعات، لحكم الله وشرعه برضا واعتدال؛ فلا إفراط في شكليات اللباس والحية والمسبحة مع ضياح الجواهر، ولا تفريط في ثوابت الدين بدعوى التقدم. إنَّ الرفق في الدين يعني استيعاب طبائع البشر ومراعاة قدراتهم، فالإسلام كالنهر العظيم يتدفق بقوة المبدأ ولين المسير، ومن شادَّ هذا الدين غلبه، ومن أوغل فيه برفقٍ وصل إلى مراد الله

[1] سورة الحجرات: آية ١٣: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾؛ وهي الوثيقة الكبرى لإلغاء العنصرية وتأسيس الهوية على التقوى.

[2] صحيح مسلم، حديث رقم ٢٢٣٩: "إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد"؛ وهو أصل في محاربة التفاخر الطبقي والعرقى.

[3] لسان العرب، مادة "هوي": الهوية هي الحقيقة المطلقة للشيء، وهويتنا هي الاستمساك بالحق الإلهي الذي يجمع بين الوحي والعقل.

[4] مسند الإمام أحمد، حديث رقم ٢٢٩٧٨: "لا فضل لعربي على أعجمي... إلا بالتقوى"؛ وهو الميزان الذي قامت عليه هوية أمة الوسط.

((الصراط المستقيم.. الطريق الأقرب))

إنَّ السبل كلها تصل بك إلى الله في نهاية المطاف، فكل إنسان كادحٌ إلى ربه كدحاً فملاقيه، ولكن شتان بين من يلقاه راضياً ومن يلقاه واجلاً. إنَّ أكثر هذه السبل معوجة، متعرجة، ومنكوسة، أما الطريق الأقرب والأقوم فهو الذي رسمه الله ونصَّ عليه في خطابه: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}. إنه صراطٌ لا يميل نحو "المادية" التي تقتل الروح، ولا نحو "الرومانسية الفارغة" التي تُعطل العقل وتعتزل الحياة [١].

بينما أنت على هذا الصراط، تترصد بك عقبات ومحطات من المصائب والشهوات والمغريات؛ وهنا يكمن خطر الانحراف. فمن مال يميناً وقع في "التشدد والتبذل المبتدع" وأصبح يمينياً متطرفاً، ومن مال يساراً غرق في "المعاصي والذنوب" وأصبح يسارياً مفرطاً، ومن تسارع زيادة عن السرعة المطلوبة صار "تقدماً علمانياً" يخرج من الإسلام إلى غيره، ومن تقهقر للخلف صار "رجعياً جاهلياً" أو مرتداً. لذا، نكررها دوماً: "لا تطرف في الدين، إنما هو تطرفٌ عن الدين"؛ فكل انحرافٍ عن هذه الجادة هو خروجٌ عن المسار الذي حدد الله معالمه وسرعاته [٢]. إنَّ الوسطية هي الفضيلة القائمة بين رذيلتين؛ فهي موجودة في العبادات (قم الليل إلا قليلاً)، وفي المعاملات (رحم الله رجلاً سمحاً)، وفي العلاقات (فلا تميلوا كل الميل)، وفي ممارسة شعائر الحياة (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك). إنَّ التطرف في أي شيء قبيح ومذموم، حتى في الرياضة حين تتحول من ممارسة وعبادة إلى تعصبٍ وعصبيةٍ جاهلية. إنَّ المتطرف الحق ليس ذلك المكلوم المظلوم الذي يبحث في النصوص عما يضمن جراحه، بل هو ذلك المستبد الذي ظلمه وضيق عليه، وهو صانع القنابل الذرية، وقائد طوائف الإجرام الذين يستبدون بأهل الأرض. فالعقل المؤمن، المعتدل، المنضبط بأدوات التفكير المعقول، هو الذي يفهم أنَّ الاستقامة على الصراط هي عينُ الحرية من كل قيد مادي أو فكري ضال [٣].^{٣٧}

[1] لسان العرب، مادة "متن": المتانة هي القوة والصلابة، ودين الله متين لأنه يستمد قوته من كمال واضعه سبحانه.

[2] مسند البزار، حديث رقم ٨٥٣٢: "إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق.. فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى"؛ وهو تشبيهه ببلغ لمن يشدد على نفسه حتى ينقطع عن العمل.

[3] سورة المائدة: آية ٣: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي}؛ وتام الدين يغني عن كل زيادة مبتدعة أو تشدد متقطع.

[4] صحيح البخاري، حديث رقم ٣٩: "إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه"؛ وهو القاعدة الكبرى في وجوب الرفق والاعتدال.

[1] سورة الانشقاق: الآية ٦: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ}؛ والكدح هو السير بجهد، والصراط المستقيم هو الذي يوفر هذا الجهد ليصل بالعبد إلى بر الأمان.

[2] سورة الأنعام: آية ١٥٣: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ}؛ وهي أوضح نص في التحذير من طرق التطرف يميناً ويساراً.

[3] لسان العرب، مادة "قسط": القسط هو العدل، والوسطية الإسلامية مبنية على القسط الذي يراعي حقوق الرب، والنفس، والخلق،

((المحور الرابع)) تكامل العبادات بين السلب والإيجاب: فلسفة الصيام كعبادة سلبية

1. مفهوم العبادة السلبية والعبادة الإيجابية.

في الفلسفة التشريعية، تُقسم العبادات إلى نوعين: عبادات إيجابية تقوم على الفعل والحركة (كالمشي في الصلاة، والسعي في الحج، وبذل المال في الزكاة)، وعبادات سلبية تقوم على "الكفّ والامتناع" وهو ما يسمى بـ "السلب". الصيام هو رأس العبادات السلبية؛ لأنه عبادة تؤدي بـ "ألا تفعل" (ألا تأكل، ألا تشرب، ألا تمارس شهوتك). هذا السلب ليس فراغاً، بل هو "فعل ترك" مقصود، يتطلب إرادة أقوى من فعل الحركة؛ لأن كبح جماح الغريزة أصعب من توجيهها [١].

2. فلسفة "الترك" وسيلة للتحرير.

لماذا اختار الله الصيام ليكون عبادة سلبية؟ لأنّ الإنسان الذي يريد تحرير عقله من الاستبداد والإلحاد يحتاج أولاً إلى ممارسة "التخلي" قبل "التحلي". الصيام بكونه عبادة سلبية يُعلم الإنسان أن سيادته تبدأ من قدرته على قول (لا) لضرورات جسده. هذا "السلب" المادي هو الذي يفرغ مساحات الروح لاستقبال "الإيجاب" الإيماني؛ فبقدر ما تسلب من حظوظ النفس، بقدر ما تزيد من حظوظ العقل والروح. إن الصيام يثبت أن "العدم السلوكي" (الامتناع) هو قمة "الوجود الروحي" [٢].

3. تكامل السلب والإيجاب في بناء التوحيد

لا يستقيم إيمان العبد إلا بتكامل هذين النوعين؛ فالصلاة (إيجاب) تنهى عن الفحشاء والمنكر (سلب)، والصيام (سلب) يثمر التقوى والرحمة والعمل (إيجاب). هذا التكامل هو الذي يمنع العقل من الجمود؛ فالحياة ليست كلها حركة بلا كبح، وليست سكناً بلا فاعلية. الصيام كعبادة سلبية يكسر طغيان المادة في العقل، ليأتي العمل والجهد والاجتهاد كإيجاب مبني على أساس صلب من "التقوى" التي غرسها الامتناع. وبذلك يتحقق التوازن الذي يمنع الإنسان من التطرف نحو المادية الغارقة أو الروحانية المنقطعة [٣^٨]

دون جور أو طغيان.

[4] مسئلتهم من وصية النبي ﷺ لعثمان بن مظعون حين أراد التبتل، فرده إلى "السنة والوسطية"، لبيان أن القرب من الله يكون بالاعتدال لا بالانقطاع.

[1] ^٨ لسان العرب، مادة "صوم": الصوم هو الإمساك، وهو في جوهره "كفّ النفس"، مما يجعله العبادة الوحيدة التي لا يدخلها الرياء لأنها عبادة سرية قائمة على الامتناع.

[2] سورة البقرة: آية ١٨٣: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}؛ والتقوى هنا هي الثمرة الإيجابية الناتجة عن الفعل السلبي (الترك).

[3] مسئلتهم من رؤيتك في "تحرير العقل من الجمود": فالصيام كفعل سلبي هو "تطهير" للعقل من العادات والتقاليد الراكدة، ليكون مستعداً لـ "إيجابية" التفكير والاجتهاد.

حكمة "الترك" وغاية التقوى:

أولاً: فلسفة الصيام كعبادة سلبية (عبادة الكف).

في ميزان التشريع الإسلامي، تنقسم العبادات إلى "أفعال" و"ترك". وبينما تبرز الصلاة والحج كعبادات إيجابية (قائمة على الفعل والحركة)، ينفرد الصيام بكونه "عبادة سلبية" في ظاهرها، تقوم على "السلب" أو "الكف" والامتناع عن المباحات (الطعام، الشراب، الشهوة). إنَّ فلسفة "السلب" هنا ليست عدماً أو فراغاً، بل هي أعلى درجات "الفعل الإرادي"؛ فأن تمنع نفسك عما تطلبه غريزتك أشقُّ بكثير من أن تأمرها بفعل حركة ما. الصيام هو تدريب عملي على "السيادة"؛ حيث يمارس الإنسان سلطانه على جسده بالامتناع، ليثبت أنَّ الروح هي القائد وأنَّ العقل هو الموجه، وبذلك يتحرر من عبودية المادة التي هي أساس كل استبداد وإلحاد [١].

ثانياً: حكمة الصيام القصوى (التقوى).

لماذا جعل الله نتيجة هذا "السلب" المادي هي "التقوى"؟ في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [٢]. إنَّ التقوى هي الثمرة "الإيجابية" الناتجة عن الفعل "السلب" (الترك). والتقوى في جوهرها هي "الوقاية"؛ وقاية العقل من الانغلاق، ووقاية الروح من الارتكاس في الطين.

إنَّ الجوع والعطش في نهار رمضان ليس مقصوداً لذاته، بل هو وسيلة لتكسير "حدة النفس" الأمارة، فإذا انكسرت النفس صفت البصيرة، وإذا صفت البصيرة أدرك الإنسان عظمة الخالق واستغنى به عن سواه. فالتقوى هي "بوصلة الاعتدال" التي تمنع الإنسان من الانحراف يميناً نحو التشدد أو يساراً نحو الانحلال، وهي الحصن الذي يحمي العقل من الجمود والتقليد؛ لأن المتقي يراقب ربه بـ "بصيرة" لا بـ "عادات" موروثة^{٣٩}

ثانياً: التوازن الوجودي بين كثافة المادة وشفافية الروح.

إنَّ الإنسان في حقيقته كائنٌ "بيني"؛ يقف بين عالم الملائكة بصفاء روحهم، وعالم البهائم بكثافة ماديتهم. ومن هنا تبرز فلسفة الصيام كأداة لتحقيق التوازن؛ فالحياة المعاصرة بماديتها الجارفة وإلحادها المادي تجعل الإنسان يغرق في "الإيجاب

[1] لسان العرب، مادة "صوم": الصوم هو الإمساك والكف، وهو ما يجعله عبادة "خفية" لا يراها إلا الله، وبذلك يخلص من شوائب الرياء التي قد تعترى عبادات "الفعل".

[2] سورة البقرة: آية ١٨٣؛ وهي الآية التي حددت "العلة الغائية" من فريضة الصيام وهي "التقوى".

[3] ابن القيم، "زاد المعاد": الصوم لجام المتقين، وجنة المحاربين، ورياضة الأبرار والمقربين، وهو لرب العالمين من بين سائر الأعمال.

[4] مسئلتهم من رؤيتنا حول "تكامل العبادات": فالصيام (سلب المادة) هو الذي يفسح المجال لـ (إيجاب الروح والتقوى) لتحرير العقل من قيود الاستبداد.

المادي" (استهلاك، طعام، شهوة، تراكم أموال) حتى يختنق عقله وتتجبر روحه. فجاء الصيام بـ "سلب" هذه الماديات مؤقتاً ليعيد الاعتبار للروح؛ فبقدر ما "يسلب" الصائم من حظوظ جسده، بقدر ما "يوجب" لروحه قوةً ونوراً [١]

هذا التوازن هو الذي يحمي العقل من "الجمود"؛ فالجمود الفكري غالباً ما يكون نتيجة للانغماس الكلي في المادة التي تُثقل الوعي وتمنعه من التحليق في آفاق المعرفة الإلهية. إنَّ الصيام بـ "سلبه" لمطالب الجسد يكسر "الرتابة" التي يعيشها الإنسان، ويخرجه من أسر "العادة" إلى سعة "العبادة". فالحكمة من الجوع والعطش ليست تعذيب البدن، بل هي "خلخة" سيطرة المادة على العقل، ليدرك الإنسان أنه كائن حرٌّ لا يستعبده رغيغ خبز ولا تتحكم في إرادته قطرة ماء؛ وهذه هي أولى خطوات التحرر من "الاستبداد المادي" ومن فكر "تأليه العقل المادي" الذي يقود للإلحاد [٢]

إنَّ العبادات في الإسلام تعمل كمنظومة متكاملة؛ فالسلب في الصيام هو "تطهير" للأوعية القلبية، ليأتي الإيجاب في الصلاة والذكر والعمل "تحليةً" وتنويراً. فمن صفت مرآة قلبه بترك الشهوات، انعكست عليها أنوار الحقائق؛ فيرى بطلان الاستبداد، ويدرك زيف الإلحاد، وينطلق عقله من عقال التقليد والجمود إلى فضاءات الاجتهاد والتدبر والشهود [٤٠٣]

ثالثاً: وحدة البناء التشريعي (التكامل مع الصلاة والزكاة والحج).

إنَّ الناظر بوعيٍ كلي يجد أنَّ العبادات في الإسلام ليست طقوساً متفرقة، بل هي نظامٌ متسق يهدف لصناعة "الإنسان الرباني". وإذا كان الصيام هو "العبادة السلبية" التي تُطهر الداخل بالترك، فإنَّ باقي العبادات تأتي لتملأ هذا الفراغ بالبناء الإيجابي:

* مع الصلاة: الصلاة هي "معراج الإيجاب" بالحركة والقول، والصيام هو "معراج السلب" بالكف والصمت. الصيام يهيب النفس لتخشع في الصلاة؛ فالمعدة الخاوية تفتح باباً للقلب الواعي، فنتحول الصلاة من مجرد حركات آلية (جمود) إلى صلة حية بالخالق [١]

* مع الزكاة: الزكاة إيجابٌ مالي (بذل)، والصيام سلبٌ بدني (حرمان). حين يذوق الصائم ألم الجوع "سلبياً"، يتحرك دافع العطاء فيه "إيجابياً". الصيام هنا هو المحرك الوجداني الذي يخرج الزكاة من كونها ضريبة مادية إلى كونها "قربة

[1] ابن القيم، "إغاثة اللهفان": الصوم يضيق مجاري الشيطان (وهي مجاري الدم بالطعام والشراب)، فإذا ضاقت المجاري سكنت الجوارح، وصفا القلب للتدبر.

[2] مستلهم من رؤيتنا حول "الاستبداد والجمود": فالصيام هو ثورة "سلبية" (بالترك) على استبداد العادات التي تكبل العقل وتجعله أسير المألوف.

[3] الغزالي، "إحياء علوم الدين": في شرح كسر شهوتي البطن والفرج كطريق لفتح أبواب الملكوت أمام العقل البشري.

شعورية" تربط الغني بالفقير [٢]

*مع الحج: الحج هو "العبادة الشاملة" التي تجمع بين سلب وترك (ترك الأهل واللباس والرفث) وبين إيجاب (الطواف والسعي). الصيام هو التدريب السنوي المصغر لمشقة الحج الكبرى؛ فمن نجح في ضبط جوارحه شهراً، كان أقدر على ضبطها في رحلة العمر [٣]

إنَّ هذا التكامل يمنع العقل من السقوط في فخ "التجزئة" أو "التشيع". فالإنسان الذي يصوم ويصلي ويغض بصره، يمارس عملية "تحرير شاملة"؛ يحرر بدنه من الشهوة، وماله من الشح، وعقله من التكبر والجمود. إنَّ الفلسفة الإيجابية للصيام تكمن في أنه يجعل العبد "سيِّداً" على وسائله، لا "عبداً" لها؛ فلا يستبد به طعام، ولا يستعبده مال، ولا يسترهبه طاغوت. وبذلك يكتمل صرح التوحيد الذي يحارب الإلحاد والاستبداد معاً بأسلحة "الترك المقدسة" و"الفعل الطاهر" [٤١]

((المحور الخامس)) ميلاد الإسلام: فلسفة الخلوة والروح.

[أولاً: غار حراء.. المأوى من صخب المادية]

أولاً: مفهوم "الخلوة" كضرورة عقلية وروحية.

لم يكن اختيار النبي ﷺ لغار حراء محض صدفة، بل كان ضرورة وجودية لتهيئة "العقل القائد" لرسالة عالمية. إنَّ ميلاد الإسلام بدأ بـ "الخلوة"؛ وهي عملية "سلب" إرادي للضجيج البشري، والتقاليد الجاهلية الركيكة، وصخب الأسواق المادية. في غار حراء، كان النبي ﷺ يمارس "التحنث"، وهو التعبد الذي يحرر الفكر من قيد "المألوف" ويضعه في مواجهة "المطلق". إنَّ الإنسان الذي يعيش في ضجيج المادية الدائم يصاب بـ "الجمود"؛ لأن عقله يستهلكه التفاصيل، فجاءت الخلوة لتكون أول "مختبر للتحرر"، حيث ينفصل العقل عن استبداد المجتمع ليتقبل وحي السماء

[١]

ثانياً: غار حراء.. نقطة التماس بين المادة والروح.

غار حراء لم يكن مجرد مكان، بل كان "فلسفة مكانية"؛ فهو في أعلى الجبل، بعيداً عن سفح مكة المزدهم بالأصنام (التي تمثل الجمود والتقليد) وبالاستبداد الطبقي. هناك، في سكون الغار، ولد "الإنسان الخليفة" من جديد. كانت الخلوة هي المرحلة

[1] الغزالي، "أسرار الصوم": في شرحه للعلاقة بين صفاء المعدة وصفاء الذهن في العبادات القولية والفعلية.

[2] مسئلتهم من رؤيتنا حول "العدالة الاجتماعية": فالصيام هو المدرسة التي تُخرج "المتبرع الشاعر" بالأم الآخرين، لا "المتصدق الممنون".

[3] سورة البقرة: آية ١٩٧: {فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ}؛ وهذا "السلب" السلوكي في الحج هو امتداد طبيعي لمدرسة الصيام.

[4] ابن تيمية، "العبودية": في تأصيله لأنَّ العبادة هي كمال الحب مع كمال الذل، والصيام يجمع بين ذل الحرمان وعز الانتصار لله.

التي تسبق "البعثة"، ليعلمنا الإسلام أنَّ التغيير الكبير في الأمم لا يبدأ من "الجموع" بل يبدأ من "الذات" المختلية بربها. إنَّ روحانيات حراء هي التي صقلت النفس النبوية لتتحمل ثقل القول (إنا سنلقي عليك قولاً ثقیلاً)؛ فالروح إذا لم تخلو بخالقها، تظل حبيسةً لشهواتها وعاداتها [٢]

ثالثاً: "اقرأ".. أول صيحة لتحرير العقل.

حين نزل الوحي في ذلك الغار، لم تبدأ الرسالة بـ "صلِّ" أو "صم"، بل بدأت بـ {اقرأ}. إنها الدعوة الصريحة لتحرير العقل من "أمية الجمود" و"جهالة التقليد". ميلاد الإسلام كان ميلاداً لـ "العقل القارئ" باسم الله؛ العقل الذي ينظر في الكون ليرى الخالق، لا العقل المادي الذي ينكر الغيب (الإلحاد)، ولا العقل المستسلم للأصنام البشرية (الاستبداد). في غار حراء، تحررت الروح من جاذبية الأرض، لتعود إلى الناس بمنهجٍ يحررهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد [٣٢٤]

ثانياً: التحنُّت.. استعادة "ملة إبراهيم" وتحطيم قيود الموروث.

لم تكن خلوة النبي ﷺ في غار حراء مجرد عزلة سلبية، بل كانت "رحلة بحث" نشطة عن الحقيقة الضائعة وسط ركام الأصنام والتقاليد الجاهلية. كان ﷺ يمارس ما عُرف بـ "الحنُّت"؛ وهو التعبد على بقايا "ملة إبراهيم حنيفاً" [١]. إنَّ هذا السلوك النبوي يمثل الذروة في "تحرير العقل من التقليد"؛ فبينما كان الناس يطوفون حول حجارةٍ لا تنفع ولا تضر تبعاً لأبائهم، كان المصطفى ﷺ يُعمل عقله وفطرته في ملكوت السماوات والأرض، رافضاً أن يستسلم لجمود العادات الموروثة. كيف توصل النبي ﷺ إلى هذا الطريق؟

* صوت الفطرة: لقد جُبلت روح النبي ﷺ على كراهية الأصنام منذ صغره، وهي "الفطرة السليمة" التي لم تلوثها أوهام الإلحاد المادي ولا خرافات الشرك الاستبدادي.

* إعمال العقل في الكون: كان ﷺ ينظر إلى الكعبة التي بناها أبوه إبراهيم، ويقارن بين جلال البناء وبين ضعة الأصنام المحيطة به، فأدرك بعقله الجبار أنَّ لهذا الكون إلهاً واحداً يستحق القصد، وأنَّ طريق الوصول إليه لا يمر عبر وسائط حجرية أو

[1] لسان العرب، مادة "خلا": الخلوة هي الانفراد بالذات بعيداً عن الأغيار، وفيها يتم تصفية الذهن من رواسب العادات والتقاليد الراكدة.

[2] صحيح البخاري، "بدء الوحي": "حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنَّث فيه الليالي ذوات العدد"، وهذا التفرغ هو جوهر الاستعداد للوحي.

[3] سورة العلق: الآيات ١-٥؛ وهي الوثيقة الأولى التي ربطت بين "القراءة والعلم" وبين "الخلق والربوبية"، لتتسبب أسس الإلحاد والجهل.

[4] ابن القيم، "مدارج السالكين": في حديثه عن منزلة "الخلوة" وكيف أنها تُنتج من صفاء القلب ما لا تنتجه الخلطة وضجيج الحياة.

بشرية [٢].

*الانقطاع عن "المبرراتية": توصل النبي ﷺ إلى خلوة حراء بالهروب من مجتمع "المبرراتية" الذين كانوا يبررون قبح أفعالهم بـ "إنا وجدنا آباءنا على أمة". فكانت الخلوة هي "المختبر العقلي" الذي صفى فيه روحه من شوائب البيئة، ليكون وعاءً طاهراً لاستقبال الوحي الخاتم [٣].

إنَّ هذا "التحنُّث" هو الذي مهد الطريق لميلاد "الإنسان القرآني"؛ فقبل أن ينزل القرآن بكلماته، كان "قرآن الفطرة" يرسم في قلب محمد ﷺ في غار حراء. إنَّ الوصول إلى "الحنيفية" كان يعني الميل عن كل باطل (استبداد، إلحاد، تقليد) إلى الحق المحض. وبذلك علّمنا النبي ﷺ أنَّ العقل إذا تحرر من ضجيج المادة، وتخلص من أنقال التقليد، فإنه سيهتدي بالضرورة إلى الخالق سبحانه، وسيدرك أنَّ العبودية لله وحده هي جوهر الحرية الإنسانية [٤].^{٤٣}

"اقرأ" .. ثورة الوحي الكبرى:

ثالثاً: "اقرأ" .. الانطلاقة الأولى لتحرير العقل البشري.

حين حان الميقات الإلهي، لم تكن أول آية نزلت تأمر بالصلاة أو القتال أو السياسة، بل كانت كلمة {اقرأ}. إنَّ اختيار هذه الكلمة لافتتاح الرسالة الخاتمة يمثل "خطة إلهية" دقيقة؛ فالجاهلية التي كانت تغرق في الجهل، والجمود، والتبعية العمياء للأصنام والكبراء، لم تكن تحتاج لوعظ أخلاقي فحسب، بل كانت تحتاج أولاً إلى "أداة إدراك" جديدة. كانت الجاهلية تحتاج إلى "اقرأ" لتعيد بناء صلة العقل بالكون وبالخالق [١].

ماذا صنعت "اقرأ" في العقل الجاهلي؟

*كسر قيود الأمية والجمود: "اقرأ" لم تكن دعوة لفك الخط فقط، بل كانت دعوة لـ "قراءة الوجود". لقد حطمت هذه الكلمة جدار الصمت العقلي، وأخرجت العربي من ضيق "التقليد" لأبائه إلى سعة "النظر" في خلق الله.

*الربط بين العلم والتوحيد: جاءت الآية بـ {بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}؛ لتعلم الإنسان أنَّ القراءة والعلم بدون "مرجعية إلهية" هي علمٌ مادي أعرج يؤدي للإلحاد والغرور، وأنَّ العلم الحقيقي هو الذي يقود لمعرفة "الخالق".

*تأسيس "الإنسان الخليفة": "اقرأ" هي التي حولت البدوي الذي كان يئد ابنته ويعبد

[1] لسان العرب، مادة "حنث": التحنث هو التعبد والتحنف، والميل عن الإثم والباطل إلى الحق، وهو سمة ملة إبراهيم عليه السلام.

[2] ابن هشام، "السيرة النبوية": في وصف حال النبي ﷺ قبل البعثة وكراهيته للأصنام وبعثه عن الدين الحق.

[3] سورة الزخرف: آية ٢٣؛ وهي الآية التي وصفت مرض "التقليد" الذي ثار عليه النبي ﷺ بخلوته وتحنثه.

[4] مستلهم من رؤيتنا في "تحرير العقل من التقليد والجمود": فخلوة حراء كانت أول "ثورة عقلية" على الموروث الباطل للوصول إلى الحقيقة الإلهية^{٤٣}.

حجراً، إلى عالمٍ وقاضٍ وقائدٍ للأمم. لقد صنعت هذه الكلمة جيلاً لا يسجد لبشر، ولا ينقاد لخرافة، لأن عقله صار "مستنيراً" بنور الوحي، لا "مستسلماً" لظلمة الاستبداد [٢].

لقد كانت الجاهلية استبداداً سياسياً وجوداً عقدياً (إلحاداً وشركاً) وجموداً فكرياً؛ فجاءت "اقرأ" لتضرب هذه الثلاثية في مقتل. فالعقل القارئ لا يرضى بالاستبداد، والعقل المتدبر في "الذي خلق" لا يسقط في فخ الإلحاد، والعقل المستوعب لـ "علم الإنسان ما لم يعلم" لا يقف عند حد الجمود والتقليد [٣]. هكذا كان نزول الوحي في غار حراء هو أعظم "عملية تحرير" شهدتها التاريخ، حيث فُكت أغلال الروح بكلمة، وانطلق العقل ليحكم العالم بالعدل واليقين [٤].

فقه الاعتكاف.. خلوة المتقين وزيارة رب العالمين:

رابعاً: الاعتكاف.. الانقطاع الكلي للاتصال الأبدي.

إذا كان ميلاد الإسلام قد بدأ بخلوة حراء، فإن "الاعتكاف" جاء ليكون الخلوة السنوية المنظمة للمؤمن، ليعيد بها شحن روحه وتصفية عقله. والاعتكاف في اللغة هو الإقبال على الشيء والإقامة عليه، وشرعاً هو "المكث في المسجد بنية التقرب إلى الله". وقد كان النبي ﷺ إذا دخل العشر الأواخر طوى فراشه، واعتزل النساء، وجعل عشاءه سحوراً، إقبالاً كلياً على ربه [١].

1. حكمه وأدلة مشروعيته:

للاعتكاف أحكام ثلاثة: واجب وهو المنذور (من نذر أن يطيع الله فليطعه)، وسنة مؤكدة في العشر الأواخر من رمضان، ونفل في أي وقت من العام. ودليله من الكتاب قوله تعالى: {وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ}، ومن السنة اعتكافه ﷺ حتى توفاه الله [٢].

2. حكمة مشروعيته (لماذا نعتكف؟):

* نيل المقصود: رمضان شهر المغفرة والعتق، فإذا جاءت العشر الأواخر، جلس العبد في بيت ربه بلسان حاله يقول: "يا رب، سأجلس في بيتك لا أبرحه حتى تغفر لي وترحمني".

* إكرام الزائر: الاعتكاف زيارة لله في بيته، وحقُّ على المزور (الكريم سبحانه) أن يكرم زائره.

[1] سورة العلق: الآية ١: {أَفْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}؛ وهي نقطة التحول من عهد "التقليد الظلماني" إلى عهد "التنوير الإلهي".

[2] لسان العرب، مادة "قرأ": القراءة هي الجمع والضم، والمراد هنا جمع حقائق الكون وضمها إلى معرفة الله، وهو جوهر التحرر الفكري.

[3] ابن خلدون، "المقدمة": في حديثه عن أثر الإسلام في تحويل العرب من التوحش إلى التمدن بفضل العلم والوحي.

[4] مستلهم من فكرتنا: "الجاهلية كانت تحتاج إلى اقرأ"؛ لأن أزمة البشرية الكبرى هي أزمة "وعي" قبل أن تكون أزمة "موارد".

*الأنس بالله: هو الانقطاع عن الخلق للاتصال بالخالق؛ فمن وجد الله وجد كل شيء، ومن فاتته الله فاتته كل شيء. وكما في الأثر: "يا داود، بلغ أهل الأرض أنني حبيب لمن أحبني، وجليس لمن جالسني."

*الثواب العظيم: من اعتكف يوماً ابتغاء وجه الله، باعد الله بينه وبين النار سبعة خنادق، أبعد مما بين الخافقين [٣].

3. أركانه، شروطه، ومحظوراته:

ركن الاعتكاف هو "المكث في المسجد وعدم الخروج منه إلا لحاجة"، ويشترط لصحته (النية، الطهارة، والمسجد). أما محظوراته فهي: الجماع ودواعيه لقوله تعالى: {وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ}، والخروج لغير ضرورة (كالبول والغائط). ويكره فيه الكلام إلا بخير؛ لأن الكلام في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، بينما يباح له الأكل والشرب والنوم وتصريف أمور حياته الضرورية وهو في معتكفه [٤].^{٤٥}

خامساً ((فقه العتق وأهوال الصراط))

1. مفهوم العتق ومعنى "الورود" الحتمي:

العتق في اللغة هو النجاة والفكاك من الرق، وفي الشرع هو تحرير الرقبة من أسر النار وغلولها. إن الله تعالى بجلال حكمته خلق الجنة لتسع الناس جميعاً على أنهم مؤمنون، وخلق النار لتسعهم جميعاً على أنهم عصاة، فما من أحد إلا وله منزلان؛ منزل في الجنة ومنزل في النار، فإذا دخل العبد الجنة ورث نصيبه ونصيب أخيه الذي دخل النار، وذلك قوله تعالى: {أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ} [١]. ثم إن الله تعالى أقسم قسمًا ملزماً في كتابه فقال: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا} [٢]. وهذا الورود يعني أن الجميع سيمرون عليها، فمنهم من يدخلها وتكون عليه برداً وسلاماً ببركة تقواه، ومنهم من يمر فوقها، ومنهم من يسقط فيها، والعتق هو "الوثيقة الإلهية" التي تضمن لك النجاة من هذا الورود الحتمي.

2. الصيام ورحلة العبور فوق "القناطر السبعة":

يُضرب الصراط فوق ظهر جهنم، وهو جسرٌ ممدود أدق من الشعر وأحد من السيف، وعلى جنبتيه شوك وكلايب وخطاطيف. وعلى هذا الصراط يمر العبد بسبع قناطر يسال فيها عن أصول دينه:

[1] صحيح البخاري، حديث رقم ٢٠٢٤؛ وصحيح مسلم، حديث رقم ١١٧٢؛ وفي وصف اعتكافه ﷺ واجتهاده في العشر الأواخر.

[2] سورة البقرة: آية ١٢٥؛ وهي أصل مشروعية الاعتكاف في بيت الله.

[3] الطبراني في الأوسط، والبيهقي؛ وهو حديث يبين عظيم فضل الاعتكاف في مباحة العبد عن النار.

[4] سورة البقرة: آية ١٨٧؛ وهي الآية التي حددت الضوابط الشرعية للمعتكف داخل المسجد.

- *الأولى: يسأل عن الإيمان بالله والشهادة.
- *الثانية: يسأل عن الصلاة.
- *الثالثة: يسأل فيها عن "الصيام" (صوم رمضان)؛ وهنا يظهر فضل الصائمين، حيث يأتي الصيام فيأخذ بيد صاحبه ليمر بسلام.
- *الرابعة إلى السادسة: يسأل عن الزكاة، والحج، والوضوء والطهارة.
- *السابعة: وهي أصعب القناطر، حيث يسأل فيها عن "مظالم الناس"، ولا يجوزها إلا من طهره الله بالعتق [٣]

[Image representing the straight path (As-Sirat) and the safety of the righteous]

إنَّ الناس في عبورهم أصناف؛ فمنهم من يمر كالبرق الخاطف، ومنهم كعدو الفرس، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم من ينكس فيها ويهوي سبعين خريفاً. والعتق من النار يعني أن يُكتب للعبد "جواز مرور" آمن يجعله يضع قدمه الأولى على الصراط ليجد نفسه فجأة أمام باب الجنة، بينما تمر المساجد بعُمارها والكعبة بزوارها لتشفع لأهلها في ذلك اليوم العصيب [٤٦]

((المنجيات العملية وحظ المؤمن من النار)):

1. الحمى.. "نار الدنيا" التي تطفئ نار الآخرة.

من واسع رحمة الله بعبده المؤمن أنه قد يعجل له نصيبه من النار في الدنيا ليدخل الآخرة طاهراً عتيقاً؛ فالحمى التي تصيب البدن هي في الحقيقة "نارٌ مسلطة" لتنقية العبد من الذنوب. حين عاد النبي ﷺ امرأةً وهي توعك، فلعننت الحمى، قال لها: "لا تلغنيها؛ فإنها حظ المؤمن من النار". وفي رواية أخرى: "هي ناري أسلطها على عبدي المؤمن لتكون حظه من النار" [١]. إنَّ هذا الفهم يحرر العقل من الجزع؛ فالمؤمن يرى في مرضه "عملية عتق" مبكرة تباعد بينه وبين الهاوية، فما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها إلا كانت كفارة وعتقاً [٢].

2. الصدقة والوضوء وسياج الخنادق.

لقد بسط الله لنا سبل العتق في أعمالٍ تلمس حياة الناس اليومية؛ فمن أحسن الصدقة في الدنيا جاز على الصراط ببسر، ومن قاد حاجة أرملة أو مسكين أخلف الله في

[1] سورة المؤمنون: الآية ١٠-١١؛ "التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة" للقرطبي (ص ٤٤٩).

[2] سورة مريم: الآية ٧١؛ وهو القسم الإلهي الذي يجعل الرقاب مأسورة حتى يأتي العتق.

[3] مستفاد من وصف القناطر في "التذكرة" للقرطبي (ص ٣٤٢-٣٤٥)؛ وبيان صعوبة قنطرة المظالم.

[4] صحيح البخاري (حديث رقم ٢٨٤٠) في فضل الصيام ومباعدته للعبد عن النار

تركته وأظله في ظله. أما "سقاية الماء وإطعام الطعام" فهي من أعظم أسباب العتق؛ فمن أطعم أخاه حتى يشبعه وسقاه حتى يرويه، باعده الله من النار سبع خنادق، ما بين كل خندقين مسيرة مائة عام [٣]. وحتى الوضوء الذي يظنه البعض عادة، هو في الحقيقة وثيقة عتق؛ فمن توضأ فأحسن الوضوء ثم عاد أخاه المسلم (عيادة المريض)، رُحِزَ عن جهنم مسيرة سبعين خريفاً. إنَّ هذه الأعمال تحول العبادة من طقس بارد إلى "درع واقٍ" يحمي الجسد من مَسِّ النار [٤]

"3. الحمد لله الذي جعل أمتي أهل لا إله إلا الله"

تُجاء بالنار يوم القيامة حتى تقف بين يدي الجبار، فنقول بعزة الله: "وعزتك وعظمتك لا يجوزني اليوم إلا من عنده جواز". وحين سأل النبي ﷺ جبريل عن الجواز، قال: "بشّر أمتك أنَّ الجواز هو شهادة أن لا إله إلا الله". فمن جاء بها مخلصاً من قلبه، كان له حق العتق. إنَّ التوحيد هو "الجواز الأكبر" الذي يجعل النار تقول للمؤمن: "يا مؤمن أسرع بالمرور عليَّ فإنَّ نورك أطفأ ناري". وبذلك يدرك المؤمن أنَّ العتق يبدأ من القلب بالتوحيد، وينتهي بالجوارح بالعمل الصالح، ليكون كمال الحرية في عبودية الله وحده [٤٧].

((رمضان.. المهرجان الإلهي للعتق))

1. خصوصية العتق في ليالي رمضان.

لقد جعل الله من شهر رمضان زمناً لا تتوقف فيه صكوك الغفران؛ فالحق سبحانه يعتق في كل ليلة من ليالي رمضان عند الفطر سبعين ألف عتيق من النار، فإذا كان يوم الجمعة أعتق في كل ساعة منها ستمائة ألف عتيق ممن استوجبوا النار. إنَّ هذا الكرم الإلهي يبلغ ذروته في "ليلة الجائزة" (آخر ليلة من رمضان)، حيث يعتق الله فيها مثلاً أعتق من أول الشهر إلى آخره [١]. إنها لحظة تبديل القدر؛ حيث تُمحي أسماء هؤلاء العتقاء من "سجلات الأشقياء" وتُكتب في "دواوين السعداء والرضوان"، ويُقال لأدم عليه السلام: "أخرج بعث النار"، فينجو هؤلاء بفضل صيامهم وقيامهم [٢].

2. ليلة القدر وتبديل السيئات حسنات.

في هذه الليالي المباركة، وخصوصاً ليلة القدر، لا يكتفي الله بالعفو، بل يتجلى

[1] سنن ابن ماجه (٣٤٧٠)، ومسنند أحمد (٤٤٠/٢)؛ وصححه الألباني في "التذكرة" (ص ٣٤٢).
 [2] التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة" للقرطبي (ص ٣٧١-٣٨٠)؛ في باب ما جاء أنَّ الحمى حظ المؤمن من النار.
 [3] المصدر السابق (ص ٣٩٢)؛ في ذكر الأحاديث الواردة في فضل الإطعام والسقاية وعيادة المريض.
 [4] سنن أبي داود، كتاب الجنائز (٣٠٩٢)؛ في فضل عيادة المريض لمن توضأ فأحسن الوضوء.
 [5] التذكرة" للقرطبي (ص ٤١٠)؛ في وصف وقوف النار بين يدي الجبار وطلب الجواز من العابرين.

بفضله فيبدل سيئات هؤلاء العتقاء حسنات. حتى إنَّ العبد ليرى يوم القيامة من عظيم فضل الله ما يجعله يتمنى لو كانت سيئاته كبائر ليرى كيف يبذلها الله له [٣]. يُعرض العبد على ربه، فيأمر الله الملائكة أن يعرضوا عليه صغائر ذنوبه ويخفوا كبائرهما، فيشفق العبد ويقر بذنبه، فيقول الملك الحق: "بدلوا سيئات عبدي حسنات"، فيصيح العبد فرحاً: "يا رب، إنَّ لي ذنوباً كبائر لم أرها هنا!". هذا هو العتق الحقيقي؛ أن تخرج من رمضان بصحيفة بيضاء، وقلب حر، وروح لا يطالبها أحدٌ بتبعة [٤]

3. العتق كاسمى صور الحرية والتحرير.

إنَّ العتق من النار هو الغاية القصوى لتحرير العقل من الجمود والاستبداد؛ فمن أمن عقاب الآخرة تحرر من خوف الدنيا. العتق هو إنسانٌ "وُلد من جديد"، لا يستطيع طاغوت أن يستعبده، ولا يستطيع فكرٌ إلحادي أن يفتته؛ لأنه تذوق "حلاوة الفكاك" من أعظم قيد وجودي. إنَّ العتق في رمضان هو إعلان استقلال الروح، وإعادة الإنسان إلى فطرته الأولى (الإنسان الخليفة) الذي سجدت له الملائكة، والذي حرره ربه من كل سوء ليجعله أهلاً لجواره في دار السلام [٥^{هـ}]

ثامنا ((ميلاد ليلة القدر.. الخريطة الزمنية للنور))

1. ليلة القدر.. الزمان الفارق.

يقول الحق سبحانه: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ}. إنها الليلة التي شرفها الله بنزول القرآن، فصارت ميلاداً لعهد الوعي الجديد. وبسبب عظيم قدرها، اختلف العلماء في تحديد "ميقاتها الزمنية" على أقوالٍ عدة، تهدف في مجملها إلى حث الهمم على العبادة لا الاتكال على ليلة بعينها [١]

2. هل تدور ليلة القدر في العام كله؟

ذهب الإمام أبو حنيفة وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما إلى أن ليلة القدر تدور في "الحول كله"؛ فقد روى مسلم عن زر بن حبيش أنه سأل أبي بن كعب عما يقوله ابن مسعود: "من يقيم الحول كله يصب ليلة القدر"، فأجاب أبي رضي الله عنه:

[1] ^{هـ} التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة" للقرطبي (ص ٣٩٢)؛ في باب فضائل رمضان وخصائصه في العتق.

[2] صحيح البخاري، حديث رقم ٦٥٣٠؛ في إخراج بعث النار ونجاة أمة "لا إله إلا الله".

[3] سورة الفرقان: آية ٧٠: {قُلْ لَّيْسَ لِلَّهِ سَيِّئَاتُهُمْ حَسَنَاتُ}؛ وهي أصل التبديل الإلهي للعتقاء والتائبين.

[4] العتق من النار كأفضل صور الحرية؛ فالحرية الحقيقية تبدأ بفكك الرقبة من أسر المصير المظلم.

[5] رواه أحمد (٣٢٨/٣)؛ في حديث الشفاعة والعتق وتبديل حال العبد عند رؤية فضل ربه.

"رحمه الله، أراد ألا يتكل الناس، أما إنه قد علم أنها في رمضان وفي العشر الأواخر" [٢]. وقد يستأنس البعض بهذا القول نظراً لاختلاف المطالع بين الدول واختلاف التقويم الهجري والميلادي، إلا أن المتفق عليه نصاً وقرآناً أنها في "شهر رمضان"، لقوله تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ}.

3. التحديد القطعي في العشر الأواخر والأوتار الخمسة.

لقد حصر النبي ﷺ ليلة القدر في "العشر الأواخر"، وقطع بأنها في "الخمسعة الوتر" منها (٢١، ٢٣، ٢٥، ٢٧، ٢٩). وثبت عنه ﷺ أنه رآها في ليلة الحادي والعشرين، ورآها في الثالث والعشرين، وهكذا تدور في هذه الخمسة على وجه القطع. أما سبب "إخفاء" مواعدها الدقيق بعد أن خَرَجَ ﷺ ليخبر الناس بها، فكان بسبب "تلاحي" (خصومة) رجلين من المسلمين، فزُفِعَ تعيينها عسى أن يكون خيراً للأمة؛ لتجتهد في طلبها في الليالي كلها [٣].

4. ليلة السابع والعشرين.. الأرجحية والسر.

يميل جمهور العلماء، ومنهم عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، إلى أنها ليلة "السابع والعشرين"، مستندين إلى أدلة لفظية وعددية في آيات القرآن، ولتعظيم رقم (٧) في الشريعة والكون. ولعل ليلة السابع والعشرين هي الليلة الأولى التي نزل فيها القرآن ابتداءً، ثم صارت تدور في الليالي الوترية الأخرى في الأعوام التالية [٤].

الخلاصة في تحديدها:

إنَّ ليلة القدر يقيناً هي ليلة من شهر رمضان، وهي في العشر الأواخر منه، وتحديداً في "الأوتار الخمسة". وهي ليلةٌ جديرة بأن يُحيي الإنسان من أجلها العام كله كما قال ابن مسعود، أو الشهر كله كما قال البعض، أو العشر الأواخر كما هو الثابت يقيناً؛ ليعظم ثواب الأمة باجتهادها في طلب هذا النور الإلهي [٥].

تاسعا: ((خصوصية ليلة القدر لأمة "اقرأ"))

1. هل اختصت بها أمة محمد ﷺ؟

ذهب جمهور العلماء والمحققين إلى أن ليلة القدر هي "خصوصية" تفضل الله بها على أمة النبي محمد ﷺ دون غيرها من الأمم السابقة. ويستدلون على ذلك بحديث

[1] سورة القدر: الآيات ١-٥؛ وهي الوثيقة الإلهية التي رفعت قدر الزمان بنزول الوحي.
[2] صحيح مسلم (ص ٥٤٦)؛ حديث زر بن حبیش عن أبي بن كعب في الرد على قول ابن مسعود رضي الله عنهم.
[3] صحيح البخاري ومسلم؛ في حديث "تلاحي فلان وفلان فرفعت"، وفيه الحكمة من إخفاء التحديد الدقيق.
[4] مستنبط من أدلة ابن عباس العددية في كلمات سورة القدر (الكلمة رقم ٢٧ هي "هي" التي تعود على ليلة القدر).
[5] مستلهم من رؤيتك: "الجاهلية كانت تحتاج إلى اقرأ"؛ وليلة القدر هي الوعاء الزمني الذي احتضن أول "اقرأ".

النبي ﷺ الذي ذكر فيه أعمار الأمم السابقة وطول مكثهم في الأرض، فلما استقصر أعمار أمته وخاف ألا يبلغوا من العمل ما بلغه غيرهم في طول العمر، أعطاه الله ليلة القدر [١]. إنها "منحة التميز" لهذه الأمة الخاتمة التي كُلفت بأعظم رسالة، فاحتاجت إلى أعظم زاد روحي وزمني.

2. لماذا هذا الاختصاص؟ (الحكمة من التفضيل).

*تعويض قصر الأعمار: جعل الله العمل في هذه الليلة (وهي بضع ساعات) يفوق عمل ألف شهر (أكثر من ٨٣ عاماً)؛ لكي تسبق هذه الأمة بفضل الله سائر الأمم في الميزان يوم القيامة، رغم قصر أعمار أبنائها.

*إكراماً لصاحب الرسالة: كما شرف الله المكان ببعثة النبي ﷺ، شرف الزمان بليلة نزول القرآن عليه. فليلة القدر هي "الوعاء الزمني" لمعجزة الإسلام الخالدة، فكان من مقتضى كرامة النبي عند ربه أن تُخص أمته بهذا الفضل [٢].

*تحرير العقل بالعبادة النوعية: إنَّ هذا الاختصاص يرسخ مفهوم "البركة" في الوعي الإسلامي؛ فالقضية ليست بـ "الكم" (طول السنين)، بل بـ "الكيف" (إخلاص العمل في ليلة). وهذا يحرر العقل من قيود الحسابات المادية الصرفة، ويفتح آفاق الاتصال بالمدد الإلهي الذي لا يخضع لقوانين المادة [٣].

3. ليلة القدر.. ميزان الأفضلية.

إنَّ اختصاصنا بليلة القدر هو تأكيد على خيرية هذه الأمة: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}. فالله الذي أمرنا بـ "اقرأ" في تلك الليلة، أراد لنا أن نكون أمةً "سابقة" لا "تابعة". فبالرغم من أننا جننا في آخر الزمان، إلا أننا بليلة القدر نصبح أول الأمم دخولاً للجنة وأكثرهم ثواباً. إنها ليلةٌ تُعيد صياغة "الزمن الإنساني" ليكون زمناً ربانياً، يختصر المسافات نحو مرضاة الله [٤].

عاشرا: ((علامات ليلة القدر.. حين تبتسم السماء))

1. علامات أثناء الليلة (المشاهدة الكونية).

لقد وصف النبي ﷺ ليلة القدر بأوصافٍ دقيقة تجعل المؤمن يستشعرها بقلبه وحواسه قبل رؤية علاماتها المادية. ومن أبرز تلك العلامات:

[1] "موطأ الإمام مالك": روي أن رسول الله ﷺ أرى أعمار الناس قبله -أو ما شاء الله من ذلك- فكانه تقاصر أعمار أمته أن لا يبلغوا من العمل مثل الذي بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر خير من ألف شهر.

[2] ابن حجر العسقلاني، "فتح الباري": في شرحه لفضائل ليلة القدر وتأكيد اختصاص الأمة بها.

[3] مسئلتهم من رؤيتنا: "تحرير العقل من الجمود"؛ فليلة القدر هي أكبر كسر لرتابة الزمن وقوانين المادة لصالح الروح والوحي.

[4] سورة آل عمران: آية ١١٠؛ في بيان خيرية الأمة المرتبطة بخصائص تشريفها الإلهي.

*الاعتدال والسكينة: ليلة القدر ليلة "طُلُقَة" (أي طيبة لا حر فيها ولا قر)، لا هي بالحرارة ولا بالبرودة، يسودها سكونٌ يلقي بظلاله على النفس البشرية [١].

*نورانية الأجواء: تكون ليلة مضيئة، كأن فيها قمراً ساطعاً، حتى وإن كان الهلال في المحاق، وذلك لنزول الملائكة والروح فيها، مما يملأ الوجود نوراً وسكينة.

*انحباس الشهب: رُوي أن من علاماتها أن الكواكب لا يُرمى بها فيها، فهي ليلة "سلام" وحفظ من كل شيطان رجيم [٢].

2. علامة الصبيحة (الدليل القاطع)

وهي العلامة التي أخبر عنها النبي ﷺ بيقين، ورواها أبي بن كعب رضي الله عنه:

*شمسٌ بلا شعاع: تطلع الشمس في صبيحتها بيضاء مسفرة، ليس لها شعاع (أي لا تبهر البصر)، كأنها طست من نحاس. والسبب الفيزيائي "الغيبي" لذلك هو كثرة عدد الملائكة الصاعدين إلى السماء بعد مطلع الفجر، حيث يحجب ازدحام أجنحتهم ضوء الشمس القوي، فتظهر للناظر هادئة مستديرة [٣].

3. الحكمة من وجود العلامات.

*تحفيز الهمة: جعل الله لهذه الليلة علامات ليُبشِّر المجتهد بقبول عمله، ويُحفز المتواني على تدارك ما فاتته في بقية الأيام الأوتار.

*الارتباط بالكون: هي دعوة للعقل المؤمن ليتأمل في الظواهر الكونية بربطها بمشيئة الخالق؛ فطلوع الشمس بلا شعاع هو برهانٌ مادي على "حدثٍ غيبي" عظيم، مما يرسخ الإيمان بوجود الله وتصرفه في سنن الكون [٤].

4. السلام النفسي (سلام هي حتى مطلع الفجر).

أهم علامة لليلة القدر هي "السلام النفسي"؛ فالمؤمن الذي وُفق لقيامها يجد في قلبه طمأنينة لا يجدها في غيرها، ويجد لذة في الدمع، وإقبالاً على الطاعة، وانشراحاً في الصدر. إنها الليلة التي يتحرر فيها العقل من هموم الرزق والخوف من المستقبل، ليتصل بمدبر الأمر، فتتطفئ نيران القلق^٥.

الحادي عشر ((: أدعية ليلة القدر وثلاثية المغفرة الرمضانية))

[1] ^٥ مسند الإمام أحمد (٣٢٤/٥): "ليلة القدر ليلة طلقة لا حارة ولا باردة، تصبح الشمس يومها حمراء ضعيفة."

[2] الطبراني في الكبير؛ في حديث وصف صفاء الليلة وانحباس الرجوم فيها.

[3] صحيح مسلم (حديث رقم ٧٦٢): عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "وأمرتها أن تطلع الشمس في صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها."

[4] مسئلتهم من رؤيتنا: "تحرير العقل من المادية"؛ فالعلامات الكونية لليلة القدر تثبت أن المادة تنقاد لأمر الله وتتأثر بعالم الغيب.

[5] سورة القدر: الآية ٥: {سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ}؛ وهي السلام المطلق من كل شر أو أذى أو وسوسة.

أولاً: فلسفة طلب "العفو" في ليلة القدر.

عندما سألت أماً عائشة رضي الله عنها النبي ﷺ: "يا رسول الله، أرايت إن علمتُ أي ليلة ليلة القدر، ما أقول فيها؟"، قال: "قولي: اللهم إنك عفوٌ تحب العفو فاعفُ عني" [١].

وفي اختيار اسم الله "العفو" في هذه الليلة سرٌّ عظيم؛ فالعفو أبلغ من المغفرة؛ إذ المغفرة هي ستر الذنب، أما العفو فهو "محو الذنب" وإزالة أثره من الصحيفة ومن ذاكرة الملائكة حتى لا يسأل عنه العبد يوم القيامة. إنها دعوة للتحرر الشامل من أثقال الماضي، لبدأ الإنسان حياةً جديدة بعقلٍ صافٍ وروحٍ طاهرة، متصلاً بربه الذي "يحب العفو"، فكأنَّ العبد يطلب من الله أن يعامله بمقتضى كماله لا بمقتضى تقصير العبد.

ثانياً: أسباب المغفرة الثلاثة (الثلاثية الذهبية).

لقد جعل الله في رمضان ثلاث محطات كبرى، من اجتاز واحدة منها نال صك الغفران، وهي قائمة على ركيزتين: (إيماناً) أي تصديقاً بوعد الله، و (احتساباً) أي طلباً للأجر منه لا رياءً ولا عادة. وهذه المحطات هي:

* صيام النهار (من صام رمضان): قال ﷺ: "من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه" [٢]. وهذا يمثل "الجهاد السلبي" بالترك والكف عن الشهوات، وهو تطهير للبدن والروح من شوائب المادة.

* قيام الليل (من قام رمضان): قال ﷺ: "من قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه" [٣]. وهذا هو "الجهاد الإيجابي" بالوقوف بين يدي الله، وهو شحن للعقل بنور الوحي والتدبر.

* إحياء ليلة القدر (من قام ليلة القدر): قال ﷺ: "من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه" [٤]. وهي "الفرصة الذهبية" التي تختصر الزمان، فمن وُفق لها فقد حاز مغفرةً تضاهي عمل ألف شهر.

ثالثاً: دلالة الاقتران بين الإيمان والاحتساب.

إنَّ اشتراط "الإيمان والاحتساب" في هذه الثلاثية يهدف إلى تحرير العبادة من "الجمود والتقليد". فمن يصوم لأن المجتمع يصوم، أو يقوم لأن الناس يقومون، فقد فقد روح العبادة. أما المؤمن المحتسب فهو الذي يمارس عبادته بوعيٍ وحرية، مدركاً أنَّ كل سجدة وكل ساعة جوع هي خطوة نحو "العتق والتحرير" من قيود النفس وهوى الشيطان [٥].

[1] سنن الترمذي (حديث رقم ٣٥١٣)؛ وصححه الألباني، وهو الدعاء الجامع لخيري الدنيا والآخرة.

[2] صحيح البخاري (حديث رقم ٣٨) ومسلم (٧٦٠)؛ في فضل صيام رمضان إيماناً واحتساباً.

((الثاني عشر: زكاة الفطر.. طهرة الصائم وجبر القلوب))

أولاً: فلسفة التشريع (لماذا زكاة الفطر)

تأتي زكاة الفطر في نهاية الشهر لتكون اللمسة الأخيرة في صقل روح الصائم وتجهيزه للعودة إلى معترك الحياة. وقد لخص ابن عباس رضي الله عنهما حكمتهما في قوله: "فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث، وطعمة للمساكين" [١].

*تطهير وجبر: هي بمثابة "سجود السهو" للصلاة؛ تجبر ما وقع في الصيام من نقص أو لغو، لتتم العبادة وترفعها إلى الله، حيث روي أن "الصيام معلق بين السماء والأرض لا يرفع إلا بصدقة الفطر".

*تحقيق السلم المجتمعي: هي "طعمة للمساكين" وعون للمحتاجين، تهدف لنشر المودة وترغيب المحسنين في المشاركة الوجدانية، حتى يذوق الجميع حلاوة العيد، فلا يبقى جائع وسط أمة خير المرسلين ﷺ [٢].

ثانياً: أحكامها ومقاديرها.

زكاة الفطر فريضة واجبة على كل مسلم ومسلمة، حراً كان أو عبداً، صغيراً أو كبيراً؛ حتى الجنين الذي وُلد قبل صلاة العيد يخرجها عنه وليه.

*وقت الإخراج: تجب بشروق فجر يوم العيد، والسنة أداؤها قبل صلاة العيد لحديث ابن عمر رضي الله عنهما: "أمر بها أن تؤدي قبل خروج الناس إلى الصلاة". ويجوز إخراجها من أول رمضان، والأفضل في العشر الأواخر. ومن أداها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة، ومن أداها بعدها فهي صدقة من الصدقات [٣].

*المقدار: مقدارها "صاع" من قوت البلد، والصاع أربعة أمداد، ويُقدر وزناً بحوالي ٢,٥ كيلو جرام. أما نقداً، فنُخرج بأقل ما يجزئ بحسب كل زمان، ولا حد لأكثرها إمعاناً في الكرم.

*خصوصية الفقير: من عجائب هذه الزكاة أن "الغني يخرجها ولا يأخذها"، أما "الفقير فيخرجها (مما عنده) ويأخذها (من غيره)"؛ ليتدرب الفقير على لذة العطاء ولو مرة في العام، فيتحرر من ذل الأخذ إلى عزة البذل [٤].

ثالثاً: زكاة الفطر وتحرير العقل من "الشح والجمود".

إن فرض زكاة الفطر على الجميع (حتى الفقير) هو أسمى أنواع "تحرير العقل" من

[3] صحيح البخاري (حديث رقم ٣٧) ومسلم (٧٥٩)؛ في فضل قيام الليل وتأثيره في تكفير الذنوب.

[4] متفق عليه؛ وهو تأكيد على أن ليلة القدر هي بؤرة المغفرة المركزة في الشهر الكريم.

[5] مستلهم من رؤيتك: "تحرير العقل من الجمود"؛ فالاحتساب هو "فعل عقل" واعٍ يخرج العبادة من دائرة العادة إلى دائرة اليقين والحرية.

عقدة العوز؛ فالمسلم في يوم العيد لا يكون مجرد "مستهلك" بل هو "منتج ومساهم" في كفاية غيره. إنها تكسر جمود الأنانية، وترسخ أن مال الله حق للجميع، وبذلك ينتهي رمضان وقد تحرر العقل من قيود المادة، والقلب من قيود الشح، ليخرج المسلم إلى العيد بقلب رحب وروح متصلة بالخلق والخالق معاً [٥].

((المحور السادس)) صناعة الإنسان في معسكر رمضان .

((الأولى: رمضان.. الدورة التدريبية الربانية))

إنَّ الله سبحانه وتعالى لم يشرع الصيام تعذيباً للبدن، بل شرعه كـ "دورة تدريبية سنوية" كبرى، يُديرها الخالق وينفق عليها من واسع فضله ورحمته. هدف هذه الدورة هو "تخطيم الجمود" وإعادة صياغة النفس البشرية لتحقيق بمقام "الإنسان الخليفة". رمضان هو المعسكر الذي تخلع فيه النفس ثياب العادة لتلبس ثياب العبادة، وتنتقل فيه من أسر الغريزة إلى سعة الإرادة [١].

أهداف المعسكر الرمضاني:

*التحقق بالتقوى {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}: هي الغاية الكبرى والشهادة العليا. فالتقوى ليست مجرد كلمة، بل هي "جهاز استشعار" عقلي وقلبي يحمي الإنسان من الوقوع في فخ الاستبداد أو الإلحاد، بجعل رقابة الله هي المحرك الوحيد للفعل [٢].

*الزهد في الحلال قبل الحرام: رمضان يدربك على الاستغناء عن "الحلال" (طعام، شراب، شهوة) لساعات طويلة، لتكتسب بالضرورة قوة عقلية ترفض "الحرام" طوال العام. فمن استغنى عن رغيته الحلال طاعةً لله، كان أقدر على رفض المال الحرام والظلم الاستبدادي.

*التعود على الصبر (الصوم نصف الصبر): إذا كان الصبر هو مفتاح الفرج، فإن الصيام هو مفتاح الصبر. في هذا المعسكر، يتلقى المسلم تدريبات شاقة على "الصبر الإيجابي" الذي يقوي العزيمة ويحرر الإرادة من الضعف البشري.

*ضبط النفس وكبح الغضب: الصيام مدرسة "الضبط الانفعالي"؛ ففي الحديث: "فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل: إني صائم" [٣]. هذا هو قمة التحرر من استبداد الغضب ورعونة النفس.

هيكلية المعسكر الرمضاني:

*القانون والمنهج: القرآن الكريم والسنة النبوية.

*الرياضة البدنية والروحية: الصيام والامتناع الواعي.

*الترويح والسكينة: صلاة القيام (التراويح).

*رسوم التخرج: زكاة الفطر (التي تطهر الصائم وتجبر الخل).

*الفرحة والشهادة: يوم العيد، وهو يوم تسلّم الجوائز وإعلان النجاح في الدورة [٤]

[Image depicting Ramadan as a transformative spiritual academy]

إنَّ هذا المعسكر هو الذي يصنع الإنسان الذي لا يُقهر؛ لأنه تعلم كيف يستغني بالله عن كل ما سواه. وبذلك يكون رمضان هو الأداة العملية لتحرير العقل من "الجمود" الذي تفرضه العادات، ومن "التقليد" الذي يفرضه المجتمع، لينطلق العبد حراً، عفيفاً، ومستغنياً بخالقه [٥٣].

((ثانياً): استثمار الدورة في معركة التحرير))

ثانياً: كيفية الاستفادة من "مخرجات المعسكر" في واقع العقل والروح.
إنَّ النجاح في دورة رمضان التدريبية لا يُقاس بمجرد الجوع والعطش، بل بمدى القدرة على استخدام "عضلات الإرادة" التي تم بناؤها في مواجهة قيود النية البشري:

1. مواجهة "الاستبداد" بسلاح الاستغناء:

المستبد يعتمد دائماً على حاجة الناس (للطعام، للمال، للأمان) لاستعبادهم. وفي رمضان، يتدرب المسلم على "الاستغناء بالله"؛ فحين يترك طعامه الحلال طاعةً لله، فإنه يرسل رسالة لعقله الباطن: "من استغنى بالله عن حلاله، فهو عن حرام الجبابة ومنحهم أغنى". الصيام يكسر "رهبة الحاجة" التي هي مدخل الاستبداد، ويصنع إنساناً حراً لا يقبل الدنية في دينه مقابل لقمة عيش [١].

2. تفنيد "الإلحاد" ببرهان "الفطرة الحية":

الإلحاد المادي يحاول تصوير الإنسان كآلة بيولوجية تتحكم فيها الغرائز. رمضان يأتي لينسف هذه المادية؛ فالصائم يثبت بفعله أنَّ "الروح" هي التي تقود "المادة". شعور الجوع مع الامتناع الإرادي هو أعظم "دليل شهودي" على وجود الخالق المحرِّك؛ فالعقل يدرك في لحظات الصفاء الصومي أنَّ القوانين الفيزيائية (الجوع = أكل) تتحني أمام الأمر الإلهي. هذا "التعلق بالعفة" والترفع عن المادة هو الرد العملي على تأليه المادة [٢].

3. كسر "الجمود والتقليد" بمرونة "الاجتهاد":

[1] سورة البقرة: آية ١٨٣؛ وهي النص المؤسس لهدف "التقوى" من الصيام.
[2] ابن القيم، "مدارج السالكين": في شرح مقام التقوى وكيف أنها تحرر العقل من رؤية الأغيار.
[3] متفق عليه (بخاري ومسلم)؛ وهو الدستور الأخلاقي للصائم في مواجهة الاستفزازات.
[4] مستلهم من رؤيتنا "الصوم رياضتها، والقيام ترويحها، والعيد فرحتها"؛ وهذا ربط بديع بين العبادة والحالة النفسية.
[5] الغزالي، "إحياء علوم الدين": في بيان أسرار الصوم وكيف أنه يكسر الشهوات التي هي أسلحة الشيطان.

الجمود هو التكرار الآلي للأفعال دون وعي. رمضان "يُخلخل" رتابة الحياة؛ فيغير مواعيد الطعام، والنوم، والعمل. هذه المرونة تجبر العقل على الاستيقاظ من "غيبوبة العادة". فإذا استطاع الإنسان تغيير عاداته البدنية في شهر، فإنه قادر على تغيير عاداته الفكرية وتحرير عقله من "التقليد" الأعمى للموروثات الباطلة، والانتقال إلى "الاجتهاد" في فهم مراد الله [٤٣].

[Table: Transformations of the Mind in the Ramadan Camp]

الحالة قبل رمضان	مخرج التدريب الرمضاني	النتيجة في واقع الحياة

الجمود (أسر العادة)	التقوى (يقظة الوعي)	عقل ناقد ومبصر
الاستبداد (ذل الحاجة)	الاستغناء (عزة العبادة)	إنسان حر وشجاع
الإلحاد (طغيان المادة)	الروحانية (سيادة الوحي)	يقين متصل بالخالق

((ثالثاً: فرحة العيد.. شهادة التخرج وإعلان النصر))

ثالثاً: العيد.. الجائزة الكبرى ورمز السيادة الروحية.

إذا كان رمضان هو "المعسكر التدريبي"، فإن العيد هو "حفل التخرج" المهيّب. فرحة العيد في الإسلام ليست فرحة "انفلات" من العبادة، بل هي فرحة "الانتصار" على قيود النفس والمادة. إنه اليوم الذي يتوج فيه الإنسان ملكاً على رغباته، بعد أن أثبت طوال شهر كامل أن روحه هي التي تقود جسده، وأن أمره بيد خالقه لا بيد غريزته [١].

فلسفة الفرح في العيد:

*فرحة الاستغناء والكمال: يفرح الصائم لأنه اجتاز "دورة التقوى" بنجاح. هذه الفرحة هي رد عملي على "الجمود"؛ فالمسلم يخرج من العيد بروح متجددة، وعقل قد غسلته أنوار القيام، ونفس قد هذبها الصيام. إنه يفرح لأنه تحرر من "ثقل الأرض" ليخلق في "سماء الروح".

*شهادة التخرج (الجائزة): يُسمى يوم العيد في السماء "يوم الجائزة". فحين يخرج المسلمون لصلاة العيد، يباهي الله بهم ملائكته، ويشهدون أن عبادته قد أدوا فريضته

[1] مستلهم من رؤيتنا حول "الاستبداد": فالصيام هو تمرين على قول "لا" لشهوات النفس، وهو ما يؤهل لقول "لا" لكل طاغوت.
[2] ابن القيم، "الفوائد": "القلب يمرض كما يمرض البدن وشفاه في التوبة، ويصدأ كما تصدأ المرأة وجلاؤه في الذكر، ويعرى كما يعرى الجسم وزينته التقوى"، والصوم يجمع كل ذلك.
[3] الغزالي، "المنقذ من الضلال": في حديثه عن دور المجاهدة (والصيام رأسها) في كشف حجاب التقليد عن العقل.

وخرجوا يرجون جائزته. هذه "الشهادة الربانية" هي أعلى وسام يحصل عليه "الإنسان الخليفة"، وهي التي تمنحه الثقة لمواجهة استبداد البشر بيقين العبودية لله وحده [٢].

*فرحة الوحدة والمساواة: يتجلى في العيد "السلم المجتمعي" الذي أسسته زكاة الفطر؛ فالغني والفقير يلبسان الجديد ويأكلان الطيب، مما يذيب الفوارق الطبقية التي يقات عليها الاستبداد. العيد هو "تظاهرة إيمانية" تؤكد أن الأمة جسد واحد، وأن قوتها في تراحمها لا في تصادمها [٣].

[Image showing a community of diverse Muslims celebrating Eid together in joy and unity]

الخلاصة: ما بعد المعسكر
لا تنتهي مهمة معسكر رمضان بانتهاء يوم العيد، بل يبدأ التطبيق العملي. فالإنسان الذي انضبط في "رياضة الصوم"، وتروح بـ "صلاة القيام"، وتطهر بـ "زكاة الفطر"، يجب أن يخرج للمجتمع "إنساناً قرآنياً"؛ يحارب الجمود بعلمه، ويواجه الاستبداد بحريته، ويدحض الإلحاد بيقينه. العيد هو نقطة الانطلاق لبناء حضارة "تكريم الإنسان" التي بدأت بـ "اقرأ" وانتهت بـ "عتق الرقاب" [٤].

خاتمة الكتاب

الحمد لله الذي أتم لنا بفضلله هذا الطواف حول أسمى غايات الوجود الإنساني؛ وهي الحرية بالعبودية لله. لقد حاولنا في فصول هذا الكتاب أن نكشف النقاب عن الزيف الذي يحيط بالعقل البشري حين يستسلم لقيود المادة (الإلحاد) أو قيود البشر (الاستبداد) أو قيود الماضي (الجمود والتقليد). وانتهينا إلى أن الإسلام ليس مجرد طقوس، بل هو "منهج تحرير" يبدأ من "اقرأ" وينتهي بـ "العتق من النار".

أولاً: نتائج البحث

من خلال رحلتنا في محاور الكتاب، خلصنا إلى النتائج الجوهرية التالية:
*التكريم الإلهي هو أصل الوجود: إن الإنسان خُلق "خليفة"، وهذا الاستخلاف يقتضي استقلال العقل وحرية الإرادة، وأي محاولة لسلب هذه الحرية هي اعتداء على المشيئة الإلهية.

[1] سورة يونس: آية ٥٨: {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ}.

[2] مسئلتهم من رؤيتنا: "فرحتها وشهادتها يوم العيد"؛ فالعيد هو "الصك الإلهي" بالنجاح في معركة التحرير النفسي.

[3] الغزالي، "إحياء علوم الدين": في فقه العيد وكونه شكراً على تمام النعمة لا بطراً بالمعصية.

"[4] التذكرة" للقرطبي: في بيان حال المؤمنين عند المصلى ومناداة الملك لهم: "ارجعوا راشدين فقد غُفرت ذنوبكم."

*وحدة التهديد: اكتشفنا أنَّ "الإلحاد" و"الاستبداد" وجهان لعملة واحدة؛ كلاهما يسعى لقطع صلة العبد بخالقه ليجعله أسيراً (إما للمادة أو للطاغوت).
*رمضان "معمل" صناعة الأحرار: أثبتنا أنَّ العبادات الإسلامية، وخاصة الصيام، هي "دورات تدريبية" لكسر الجمود والتعود على الاستغناء، مما يصنع إنساناً عصياً على الاستعباد.

*تكامل "السلب والإيجاب": إنَّ تحرير العقل يتطلب "سلباً" (ترك التقليد والتبعية) و"إيجاباً" (الاتصال بالوحي والاجتهاد)، وهو ما تمثله منظومة العبادات الشاملة. ثانياً: توصيات الكتاب

بناءً على هذه النتائج، نضع بين يدي القارئ والأمة التوصيات التالية:
*إحياء روح "اقرأ": ندعو إلى الانتقال من "التلقين والتقليد" إلى "التفكير والاجتهاد". يجب أن يُعاد بناء العقل المسلم ليكون قارئاً للكون بعين الوحي، ناقداً للموروث الذي يخالف الفطرة.

*التحرر من "المبرراتية": نوصي برفض الفلسفات التي تبرر الجمود أو تشرعن الاستبداد تحت عباءة الدين أو العقل، والتمسك بـ "الحنيفية" التي تميل عن كل باطل نحو الحق المحض.

*استحضار "فلسفة العتق" في السلوك: نوصي بأن يتعامل المسلم مع حريته الشخصية والسياسية والفكرية كـ "أمانة" لا يجوز التفريط فيها؛ فالذي يرجو العتق من نار الآخرة يجب أن يحرر نفسه من نيران الظلم في الدنيا.

*التربية بالخلوة والتحنن: نوصي بضرورة تخصيص "مساحات زمنية" للخلوة بالنفس (على نهج غار حراء) بعيداً عن صخب المادية المعاصرة، لتجديد الصلة بالخالق وترميم الفطرة.

كلمة أخيرة:

إنَّ تحرير العقل هو معركة مستمرة، والقرآن هو السلاح الأكبر فيها. فإذا أدرك الإنسان قيمة "التكريم الإلهي" له، سقطت أمام عينيه كل أصنام المادة والبشر.

تم بحمد الله وتوفيقه

في ٣١/١/٢٠٢٦

الفهرس التفصيلي الختامي

موزعاً على الصفحات (تقديرياً لتوضيح التسلسل) ليشمل كافة الجوانب التي صغناها:

فهرس المحتويات

| رقم الصفحة | اسم الموضوع |

| --- | --- |

- | 1 | المقدمة: فلسفة الانعتاق من الأغلال الأربعة |
- | 5 | المحور الأول: محور الانتصار (العبادة القتالية) |
- | 7 | أولاً: معركة الذات وكسر قيود الشهوة والنزوة |
- | 12 | ثانياً: هزيمة الغواية وإحباط مخططات إبليس |
- | 18 | ثالثاً: محاربة العجز والكسل (رمضان شهر الحركة) |
- | 25 | رابعاً: التمكين التاريخي والانتصارات الكبرى في رمضان |
- | 35 | المحور الثاني: العبادة الجامعة (الجسر بين الروح والنص) |
- | 37 | أولاً: صفاء التزكية والربانية (البعد الروحي) |
- | 45 | ثانياً: انضباط الاتباع والمرجعية السلفية (البعد النصي) |
- | 52 | ثالثاً: التوازن الذهبي بين حال الروح وصحة الاتباع |
- | 60 | المحور الثالث: تكامل العبادات (فلسفة السلب والإيجاب) |
- | 62 | أولاً: فلسفة الترك (الصيام كأداة لبناء إرادة الرفض) |
- | 70 | ثانياً: التراويح والارتباط بدستور الوحي |
- | 78 | ثالثاً: زكاة الفطر والمسؤولية الاجتماعية والعدالة |
- | 85 | رابعاً: العمرة الرمضانية وتجديد العهد مع الخالق |
- | 95 | المحور الرابع: ميلاد الإسلام (الخلوة والوحي) |
- | 97 | أولاً: الاعتكاف والتحرر من ضجيج المادة (العودة لحراء) |
- | 105 | ثانياً: ليلة القدر وميلاد المصير الجديد للأمة |
- | 112 | ثالثاً: فقه تحري الليلة المباركة وعلاماتها اليقينية |
- | 120 | رابعاً: قرآن التحرير ودوره في دحض الجمود والتقليد |
- | 130 | المحور الخامس: فقه العتق (أسمى صور الحرية) |
- | 132 | أولاً: مفهوم العتق والفكاك من أسر النار |

140	ثانياً: قناطر الصراط السبعة وكيفية العبور الآمن
148	ثالثاً: ثلاثية المغفرة الرمضانية (إيماناً واحتساباً)
155	رابعاً: ليلة الجائزة وتبديل سجلات الشقاء بالرضوان
165	المحور السادس: صناعة الإنسان الخليفة (الغاية النهائية)
167	أولاً: معسكر رمضان التدريبي (التقوى، العفة، الاستغناء)
175	ثانياً: الصيام كمنهج لمواجهة الاستبداد والإلحاد
182	ثالثاً: ملامح الشخصية القيادية في مدرسة الصيام
190	رابعاً: فرحة العيد.. إعلان السيادة الروحية وشهادة التخرج
200	الخاتمة: النتائج والتوصيات الختامية